عُدَّةُ الصَّابِرِينَ وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

للإمام ابن قيم الجوزية

هَذَّبَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
إبراهيم سليمان الشيخ

تم تخريج الأحاديث
بمعرفة الدار

دار الصحابة للتراث بطنطا

كتاب قد حوى درراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



المقدمـــة

بســـم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعان عباده بالصبر ، وكافأهم عليه بالأجر ، وأمدهم بنعمه ، ومِن نعمه شكرُه . فالفضل منه وإليه ، والإحسان كله بيديه. يشكر على القليل ، ويجازى عليه الجزاء الوفير . ويصبر على من عصاه ، ويتحبب إليه بنعمه ، ويداويه ببلائه ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو يزيد ، وعلى السيئة بمثلها أو يغفر . سبحانه سبحانه .. هو الغفور الشكور ، وهو الحميد الصبور ، الذى جلت عظمته ، وتعالت قدرته ، وجسمت منته .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد ؛ سيد الصابرين ، وأعظم الشاكرين ، وصاحب لواء الحمد ، وسيد ولد آدم أجمعين ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وعلى ذريته ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد .. فإنه لما عزمت « دار الصحابة للتراث بطنطا » على القيام بتهذيب كتب ابن القيم رحمه الله ، فقد شاركت بجهد ضئيل من هذا المشروع ، وهو كما يقال : « جهد المقل » ، وقمت باختصار وتهذيب كتاب « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » .

والحق يقال .. فإن كلام ابن القيم كله درر وفوائد ، ويعز على النفس اختصاره ، بل ربما حزن المرء على حذف كلمة من كلامه رحمه الله .

ولكن ابن القيم كثيرا ما يستطرد إلى موضوعاتٍ قد تمس من بعيدٍ جدا موضوعَ كتابِه ، ومن خلال ذلك يمتعنا بعلمه الغزير ، وفوائده الجمة ، وأسلوبه السلس الجذاب ، حتى إن المرء ربما ينسى فى زحمة ذلك موضوعَه الأصلى ، وينشغل بذلك الموضوع أو بتلك الفائدة التى عرج عليها رحمه الله .

لما كان ذلك .. فقد رأينا أن نحذف بعض هذه الاستطرادات ونلخص بعض هذه الأبواب التى تبعد شيئًا ما عن لب الكتاب ؛ فتطرح إشكالات أو تحل خلافات فى موضوعات جانبية .

وكان كل ذلك حرصا على طَلَبَة قارىء اليوم ، ذلك الذى يريد أن يقرأ شيئًا ملخصًا ومغنيًا فى نفس الوقت . وليس معنى ذلك أننا قد أخللنا بمادة الكتاب أو سطونا عليها أو عَرَّضناها للضياع ، كلا .. بل أبقينا عليها إلا ما سبق أن استثنيناه(*) ، مع إبقائنا كلام ابن القيم كما هو ، إلا فى أضيق الحدود التى تصرفنا فيها لتبيين معنى أو توضيح غموض . ثم قمنا بعد ذلك بالتعليق على بعض المواضع فى الكتاب . ومع ذلك فنحن لا ننسب هذا الكلام جملة إلى ابن القيم رحمه الله ، بل نؤكد أن فيه بعض الإضافات التى أضفناها للربط بين المعانى والتوثيق بين الفقرات ، وعلى من أراد أن ينسب الكلام إلى ابن القيم أن يراجع نص كتاب « عدة الصابرين » – وهو الكتاب الأصلى – كى يتثبت مما ينقل .

ثم قام أحد الإخوة الباحثين بدار الصحابة بتخريج الأحاديث المرفوعة التى فى الكتاب ، حتى يكون القارىء الكريم على ثقة من هذه الأحاديث ، وعلمٍ بدرجاتها ، ويعمل بها وهو على يقين بأنها الحق الذى لا مرية فيه ، أو يتركها لأنها لم تثبت صحتها عن النبى ﷺ .

وبعد ... فهذه بضاعة مزجاة ، وجهد مقل . فإن كنا قد وفقنا فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمن أنفسنا ومن الشيطان ، والله برىء من ذلك ورسوله . وأخيرًا نقول كما قال ربنا : ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] ، وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد .

إبراهيم سليمان الشيخ

(*) من أمثلة ما تم حذفه : تحديد مواضع آيات الصبر والشكر فى كل سور القرآن بعد أن ذكر عددها .

وكذلك : حذف كلام ابن القيم عن الأمثلة التى ضربت فى الدنيا وما إلى ذلك مما لا يتدخل فى لب موضوعه .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور العلى الكبير ، السميع البصير ، العليم القدير ، الذى شملت قدرته كل مخلوق ، وجرت مشيئته فى خلقه بتصاريف الأمور ، وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحاب القبور . قدر مقادير الخلائق وآجالهم ، وكتب آثارهم وأعمالهم ، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم ، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . القاهر القادر ، فكل عسير عليه يسير ، وهو المولى النصير ، فنعم المولى ونعم النصير . يسبح له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير . يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله جل عن الشبيه والنظير ، وتعالى عن الشريك والظهير ، وتقدس عن تعطيل الملحدين كما تنزه عن شَبه المخلوقين ، فليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخيرته من بريته ، وصفوته من خليقته ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده . أعرف الخلق به ، وأقومهم بخشيته ، وأنصحهم لأمته ، وأصبرهم لحُكْمه ، وأشكرهم لنِعَمه ، وأقربهم إليه وسيلة ، وأعلاهم عنده منزلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأوسعهم عنده شفاعة . بعثه إلى الجنة داعيا ، وللإيمان مناديا ، وفى مرضاته ساعيا، وبالمعروف آمرًا وعن المنكر ناهيا . فبلغ رسالات ربه ، وصدع بأمره، وتحمل فى مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه . فثبت فى مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين ، وترقى فى درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين .

فحمد الله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين ، ولذلك خص بلواء الحمد دون جميع العالمين ، فآدم تحت لوائه ، ومِنْ دونه الأنبياء والمرسلين ، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذى أنزله عليه ؛ كذلك فيما بلغنا ، وفى التوراة والإنجيل ، وجعله[1] آخر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه،وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم إلى الوجود ؛ لحمدهم له على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء ، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمدًا لله وذكرا ، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبرا وشكرا . فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه — كما وحّد الله وعرّف به ودعا إليه — وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ... فإن الله سبحانه جعل الصبر جوادا لا يكبو ، وصارما لا ينبو ، وجندا غالبا لا يهزم ، وحصنا حصينا لا يهدم ولا يثلم ، فهو والنصر أخوان شقيقان ، فالنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، والعسر مع اليسر ، وهو[2] أنصر لصاحبه من الرجال بلا عُدة ولا عدد .

ولقد تكفل الله سبحانه لأهل الصبر أن يوفيهم أجرهم بغير حساب ، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين ، فقال تعالى : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ [الأنفال : ٤٦]وبهذه المعية ظفر الصابرون بخير الدنيا والآخرة ، وفازوا بالنعمة الباطنة والظاهرة .

وجعل سبحانه الإمامة فى الدين أساسها الصبر واليقين ، فقال تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأخبر أن الصبر خير لأهله ، فقال تعالى : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ [النحل : ١٢٦] .

---

(١) أى الحمد ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ [من الآية ١٠ بسورة النمل] .

(٢) المقصود هنا : الصبر .

وأخبر أن كيد العدو مهما عظم فإنه لا يضر إذا توفر الصبر والتقوى ، فقال تعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وأخبر سبحانه أن الصبر والتقوى يوصلان إلى العز والتمكين ، فقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وعلق الفلاح بهما فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وأخبر عن محبته لأهل الصبر ، فقال تعالى : ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ وبشر الصابرين فقال تعالى : ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [البقرة : ١٥٥ – ١٥٧] .

وأوصى بالاستعانة بالصبر والصلاة على النوائب ، فقال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] وأخبر أن الرغبة فى ثوابه والإعراض عن زينه الدنيا لا ينالها إلا الصابرون ، فقال تعالى : ﴿ **ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾ [القصص : ٨٠] .

وأقسم سبحانه أن الإنسان فى خسر : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ [العصر : ٣] .

وخص سبحانه أهل الميمنة بالتواصى بالصبر والمرحمة .

وخص أهل الصبر والشكر بالانتفاع بآياته ، فقال فى أربع آيات من كتابه : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ [إبراهيم : ٥ ، لقمان : ٣١ ، سبأ : ١٩ ، الشوى : ٣٣] .

وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر فقال : ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ [هود : ١١] .

وأخبر أن الصبر والمغفرة من عزائم الأمور فقال : ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ [الشورى : ٤٣] .

وأمر رسوله بالصبر لحكمه ؛ فقال : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ [الطور : ٤٨] وقال : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾[١] [النحل : ١٢٧] .

والصبر آخية[٢] المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها ، وساق إيمانه الذى لا اعتماد له إلا عليها ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، وإن كان فإيمان قليل فى غاية الضعف ، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير أطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولم يحظ منها إلا بالصفقة الخاسرة .

فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم ، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم ، فساروا بين جناحى الصبر والشكر إلى جنات النعيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * * *

ولما كان الإيمان نصفين ، نصف صبر ونصف شكر ، كان حقيقا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين ، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ، ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين .

فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما ، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما ، فجاء كتابا جامعا حاويا نافعا ، فيه كثير من الفوائد التى لا تكاد تظفر بها فى كتاب .

---

(١) ذكر ابن القيم – رحمه الله – قول الإمام أحمد رحمه الله : « ذكر الله سبحانه الصبر فى القرآن فى تسعين موضعا » وقد قسم الإمام ابن القيم الأنواع التى سيق فيها الصبر إلى اثنين وعشرين نوعا ، فعلى من أراد تفصيلها مراجعة الباب الخامس عشر من الكتاب الأصلى .

(٢) هى العروة التى تشد إليها الدابة .

وذلك محض منة من الله على عبده وعطية من بعض عطاياه .. ومع هذا فهو جهد المقل وقدرة المفلس ، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله ، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله .

وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين . فما كان فى الكتاب من صواب فمن الله وحده ، فهو المحمود وهو المستعان . وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان ، والله برىء منه ورسوله .

وقد جعلته ستة وعشرين بابًا وخاتمة .

سميته « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » والله المسئول أن يجعله خالصًا لوجهه مدنيًا من رضاه ، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه ، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب الأول :

معنى الصبر لغـة

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكى والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما .

ويقال : صبرت فلانا : إذا حبسته ، وصبّرته : بالتشديد إذا حملته على الصبر .

وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة . ومنه « الصبر » للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته . وقيل مأخوذ من الجمع والضم .

والتحقيق أن فى الصبر المعانى الثلاثة : المنعْ ، والشدة ، والضم . ويقال : صبر : إذا أتى بالصبر ، وتصبر : إذا تكلفه واستدعاه ، واصطبر : إذا اكتسبه وتعلمه ، وصابر : إذا وقف خصمه فى مقام الصبر ، وصبَّر نفسه وغيره : إذا حملها على الصبر .

الباب الثانى :

حقيقة الصبر(*)

الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنَع به من فعل ما لا يحسن ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها . وسئل عنه الجنيد فقال : « تجرع المرارة من غير تعبس » . وقال ذو النون : « هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة » .

وقيل : « الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب » ، وقيل : « هو الغنى فى البلوى بلا ظهور شكوى » . وقال أبو عثمان : « الصبار هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره » ، وقيل : « الصبر : المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية » ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه ، فعليه أن يحسن الشكر فى العافية ويحسن الصبر فى البلاء .

وقال عمرو بن عثمان المكى : « الصبر هو الثبات مع الله ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة » ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء بصدر واسع ، لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى .

وقال الخواص : « الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة » . وقال رويم : « الصبر ترك الشكوى » . وقال غيره : « الصبر هو الاستعانة بالله » . وقال أبو على : « الصبر كاسمه » . وقال على بن أبى طالب : « الصبر مطية لا تكبو » . وقال أبو على الدقاق : « حد الصبر أن لا يعترض على التقدير » فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر قال الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿ **إنا وجدناه صابرا** ﴾ [ص : ٤٤] مع قوله : ﴿ **مسنى الضر** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

(*) فى هذا الباب يبين ابن القيم – رحمه الله – حقيقة الصبر وأنه هو ثبات القلب على طاعة الله وعلى عدم معصيته وعلى تحمل البلاء ، وعدم الشكوى إلا إلى الله ، وأن الصبر إنما هو لازم للإنسان على الدوام وفى جميع أحواله .

والشكوى نوعان : (أحدهما) : الشكوى إلى الله وهى لا تنافى الصبر كما قال يعقوب : ﴿ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ [يوسف : ٨٦] مع قوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ [يوسف : ١٨ ، ٨٣] . وقال موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(والنوع الثانى) : شكوى المبتلى ، بلسان حاله أو بلسان مقاله، وهى تنافى الصبر ، بل تضاده وتبطله .

وقيل : « الصبر شجاعة النفس »ومن ها هنا أُخذ قول : « الشجاعة صبر ساعة » . وقيل : « الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب » .

والصبر والجزع ضدان ، ولهذا يقابل أحدهما بالآخر ، قال تعالى عن أهل النار : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ [إبراهيم : ٢١] ، والجزع قرين العجز وشقيقه ، والصبر قرين الكَيْس[1] ومادته . والنفس مطية العبد التى يسير عليها إلى الجنة أو النار ، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب .

وحفظ من خطب الحجاج : « اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء ، فرحم الله امرءا جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصى الله ؛ فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه » .

(قلت) : والنفس فيها قوتان : قوة الإقدام ، وقوة الإحجام ، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره . ومن الناس من يكون صبره على ما ينفعه وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن ارتكاب المعصية ، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا على ذاك . وأفضل الناس أصبرهم على النوعين .

---

(١) الكيس : العقل والفطنة .

وقيل : « الصبر ثبات باعث العقل والدين فى مقابلة باعث الهوى والشهوة » ومعنى هذا : أن الإنسان يحب مايدعوه إليه هواه وشهوته ، وأن العقل والدين فى حرب دائمة مع الشهوة والهوى ، والنصر فى هذه الحرب متعلق بقلب العبد وصبره وشجاعته وثباته على الحق والطاعة .

وللصبر ارتباط بجميع مقامات الدين – سواء كان فعلًا أو تركا – وله أسماء كثيرة بحسب متعلقه ، فالصبر عن الفواحش يسمى عفة ، والصبر على الجهاد يسمى شجاعة ، وعلى الإنفاق يسمى جودا . وإذا كان للتسوية بين متماثلين سمى عدلا . وهكذا تتنوع أسماؤه بحسب متعلقه .

البـاب الثالث :

الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الصبر : هو حبس العبد لنفسه ومنعها من إجابة داعى ما لا يحسن (إذا كان هذا الحبس والمنع خُلُقا للعبد ومَلَكة له) . وإن كان بتكلف وتمرن سمى تصبرا ، وإذا تكلف العبد الصبر صار سجية له كما فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « ومن يتصبر يصبره الله »[1] .

وأما **الاصطبار** : فهو أبلغ من التصبر ، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب ، فالتصبر مبدأ الاصطبار ، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب ، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصيرا اصطبارا .

وأما **المصابرة** : فهى مقاومة الخصم فى ميدان الصبر ، فإنها مفاعلة ، والمفاعلة تكون بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة .

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر فى نفسه ، والمصابرة وهى حاله فى الصبر مع خصمه ، والمرابطة وهى الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة .

ولما كان العبد قد يصبر ولا يصابر ، وقد يصابر ولا يرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى . فقد أخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى وأن الفلاح موقوف عليها فقال : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه فى الظاهر ، فهى لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته .

---

(١) أخرجه مالك [٢/٩٩٧] ، ومن طريقة البخارى [٣/٣٣٥/فتح] ، ومسلم [٢/٧٢٩/عبد الباق] ، وأبو داود [٢/١٢١] ، والنسائى [٢٥٨٨] ، والترمذى [٢٠٢٤] وقال حديث حسن صحيح ، والبيهقى [٤/١٩٥] ، وابن حبان [٥/١٧٠] ، عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثى عن أبى سعيد الخدرى به .

الباب الرابع :

انقسام الصبر باعتبار محله(*)

الصبر ضربان : ضرب بدنى وضرب نفسانى ، وكل منهما نوعان : اختيارى واضطرارى ، فهذه أربعة أقسام .

الأول : بدنى اختيارى ، كتعاطى الأعمال الشاقة على البدن باختيار الإنسان وإرادته .

الثانى : بدنى اضطرارى ، كالصبر على الألم والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك .

الثالث : نفسانى اختيارى ، كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله ، لأن الشرع يقبحه ، أو لأن العقل لا يستحسنه .

الرابع : نفسانى اضطرارى ، كصبر النفس عن محبوبها قهرا إذا حيل بينها وبينه .

ومن صبر على القسمين الاضطراريين ، ولم يصبر على القسمين الاختياريين فلا يعد صابرا .

والجن تشارك الإنس فى هذا الصبر الاختيارى ، لأنه من لوازم التكليف ، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر(١) ، والصبر عن النواهى(٢) كما كلفنا نحن بذلك .

أما الملائكة فلا يتصور فى حقهم الصبر ، لأنهم لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ، بل العبادة والطاعة لهم كالنفس لنا . وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم على ما خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع .

(*) أقسام الصبر هذه يشترك فيها الإنسان والحيوان فى النوعين الاضطراريين ولا يفترق الإنسان عن الحيوان إلا بالصبر الاختيارى ، لأنه يكون بإرادة الإنسان ، أما الاضطرارى فلا دخل للإنسان فيه .

(١) أى الصبر على القيام بها .

(٢) أى الصبر عن الانتهاء عنها .

فالإنسان إذا غلب صبرُه هواه وشهوته التحق بالملائكة ، وإن غلب هواه وشهوته صبرَه التحق بالشياطين ، وإذا غلب طبعُه من الأكل والشرب والجماع صبرَه التحق بالبهائم .

قال قتادة : « خلق الله سبحانه الملائكة عقولا بلا شهوات ، وخلق البهائم شهوات بلا عقول ، وخلق الإنسان وجعل له عقلا وشهوة ، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو مع الملائكة ، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم » .

الباب الخامس :

قوة الصبر وضعفه(*)

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

إحداها : أن يكون القهر والغلبة لداعى الدين فيرد جيش الهوى مفلولا . وهذه الحالة يتوصل إليها بدوام الصبر ، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون فى الدنيا والآخرة ، وهم الذين قالوا : ﴿ **ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ [فصلت : ٣٠] ، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت : ﴿ **ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ [فصلت : ٣٠ : ٣١] .

وهم الذين نالوا معية الله ، وهم الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، وهم الذين خصهم الله بهدايته دون من عداهم .

الحالة الثانية : أن تكون القوة والغلبة لداعى الهوى ، فلا ينازعه باعث الدين بالكلية ، فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا ، وله معهم حالتان :

إحداهما : أن يكون من جندهم وأتباعهم ، وهذه حال العاجز الضعيف .

والثانية : أن يكون الشيطان من جنده ، وهذه حال الفاجر القوى ذى السلطان والمبتدع الذى يدعو إلى بدعته ويتبعه الناس ، كما قال القائل :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بى الحال حتى صار إبليس من جندى

وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر . وهذه حالة هد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء

(*) إنما تكون قوة الصبر وضعفه حسب تمكن الإنسان من هواه وشهواته ، فإذا تمكن الإنسان من هواه وسهل عليه قهر شهواته كان الصبر من أيسر الأمور عليه . وإذا تمكنت الشهوة والهوى من الإنسان كان الصبر أصعب شىء وأثقله على نفسه ، فلا يقوم به أبدا . وإذا تغلب على هواه مرة وتغلب هواه عليه أخرى كان صبره بحسب ذلك ، والتوفيق لمن وفقه الله .

وشماتة الأعداء . وجند أصحابه : السحر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار الآجل على العاجل ، وهي التي قال النبي ﷺ في صاحبها : « العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني »[1] .

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى ، فمنهم المحارب لله ورسوله الذي يصد عن سبيله ويبغيها عوجًا ، ومنهم المعرض عن الشرع المقبل على دنياه وشهواته ، ومنهم المنافق ، ومنهم الماجن الذي قطع نفسه بالمجون ، ومنهم من تعذرت عليه التوبة ، ومنهم من يئس من نفسه وعمله ، ومنهم من يغتر بعفو الله ولا يترك المعاصي ، ومنهم من يقول : سوف أتوب قبل الموت ، إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم ؛ فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي يتوصل بها إلى قضاء شهوته .

من أذل عقله ودينه أذله الله

وهذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه ، وجعله أسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه سلط الله عليه من جعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ، ويسخر منه هو وجنده وحزبه . فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب ، قال تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ [النحل : ٩٨ - ١٠٠] .

---

(١) أخرجه الترمذي [٢٤٥٩] وحسنه ، وابن ماجه [١٤٢٣/٢] ، وأحمد [١٢٤/٤] ، وابن المبارك في الزهد [١٧١] ، والبغوي [٣٠/١٤] ، من حديث شداد بن أوس .

وقال الألباني في تعليقه على المشكاة [٥٢٨٩] : إسناده ضعيف .

(تنبيه) لفظة (الأماني) ليست في شيء من هذه المصادر ، ولكن وجدتها في مسند الفردوس [٤٩٣٠] ، وهو خالٍ من الأسانيد .

الحالة الثالثة : أن تكون الحرب سجالا ودولا بين الجندين ، فتارة له وتارة عليه ، وتكثر نوبات الانتصار وتقل ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء ، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار ، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة ، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة .

قوة الصبر حسب قوة الدين

ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة ، ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس . ومثال الأول : كرجل صارع رجلا شديدا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة ، والثانى : كمن صارع رجلا ضعيفا فإنه يصرعه بغير مشقة . فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « لقى رجل من الإنس رجلا من الجن فصارعه ، فصرعه الإنسى فقال : ما لى أراك صئيلا ؟ فقال : إنى من بينهم لضليع » فقالوا : أهو عمر بن الخطاب ؟ فقال : « من ترونه غير عمر ؟! » .

وقال بعض الصحابة : « إن المؤمن ينضى[1] شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر » .

وعن بعض السلف « أن شيطانا لقى شيطانا فقال : ما لى أراك شحيبا ؟ فقال : إنى مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه ، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه ، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار . فقال الآخر : لكننى مع رجل

---

(١) لم أجده موقوفًا . ووجدته مرفوعًا عند أحمد من حديث أبى هريرة [٣٨٠/٢] ، وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع برقم [١٧٧٢] .

إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعا ، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه ، وإن دخ داره لم يسم الله فأدخل معه ، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها » .

فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك ينال منه غرضه .

الباب السادس :

أقسام الصبر باعتبار متعلقه(*)

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

وهذه الثلاثة هى التى أوصى بها لقمان ابنه فى قوله : ﴿ **يا بنى أقم الصلاة أومر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾ [لقمان : ١٧] . فأمْرُه بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمره غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر .

وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى قوله : ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينتقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ [الرعد : ١٩ - ٢٢] .

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان فى هذه الأوصاف . فوصفهم بالوفاء بعهده الذى عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهده إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه . ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء بأنهم لا يقع منهم نقضه . ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويدخل فى هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه[1] .

(*) لابد للإنسان من صبر على طاعة ربه حتى يقوم بها ويتحمل تكاليفها التى تصعب على النفس ، ولابد له أيضا من صبر عن معصية ربه أى صبر على عدم طاعة هواه وشهوته فيما لا يحبه ربه ، كما أنه لابد له أيضا من صبر على قضاء الله وقدره الذى ربما أتاه بما لا تحب نفسه .

(١) وقد فصل ابن القيم رحمه الله كيف يدخل الدين كله فيما أمر الله به أن يوصل . فراجعه إن شئت فى « الباب السابع » بالكتاب الأصلى .

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطع هذا الوصل .

ثم جمع لهم – سبحانه – ذلك كله فى أصل واحد هو أساس ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه وهو الصبر فقال : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ . فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال : ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ .

وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة ، وهما : الصبر والصلاة فقال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق .

ثم ذكر حالهم إذا جُهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يحسنون إلى من يسىء إليهم فقال : ﴿ **ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ .

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها ؛ اشتملت على فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة فى قوله : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا** ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، وقوله : ﴿ **إنه من يتق ويصبر** ﴾ [يوسف : ٩٠] ، وقوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة ، فإن حقيقة التقوى : فعل المأمور وترك المحظور .

الباب السابع :

انقسام الصبر باعتبار الأحكام الخمسة(*)

. وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى : واجب ، ومندوب ، ومحظور ، ومكروه ، ومباح .

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع : أحدها : الصبر عن المحرمات ، والثاني : انصبر على أداء الواجبات ، والثالث : الصبر على المصائب التى لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها .

وأما المحظور فأنواع : أحدها : الصبر على الطعام والشراب حتى الموت ، وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة فإنه حرام إذا خاف العبد بترك الموت ؛ قال طاووس وبعده الإمام أحمد : « من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار » .

(*) والصبر – مثل غيره من الأفعال – له أحكام متعددة ، فقد يكون واجبًا ، أو مندوبا ، أو محظورا ، أو مكروها ، أو مباحًا . حسب ما يتعلق به مما يصبر عنه الإنسان . ولنوضح معنى هذه الأحكام باختصار .

فالواجب : هو مرادف الفرض عند الجمهور ، وهو ما طلب فعله على وجه اللزوم بحيث يأثم تاركه ويثاب فاعله .

والمندوب : هو ما طلب الشارع فعله طلبًا غير لازم ، وهو ما يثاب فاعله ، ولا يعاقب تاركه (وهو : المستحب) ؛

والمحظور : هو الحرام . وهو ضد الواجب ، يعاقب فاعله ،يثاب تاركه .

والمكروه : هو ما تركه خير من فعله ، ولا يذم فاعله ، ويمدح تاركه .

والمباح : هو ما لا يتعلق به أمر ولا نهى . وهو الحلال والجائز .

هل يجوز سؤال الناس عند المخمصة ؟

فإن قيل : فما تقولون فى الصبر عن المسألة[1] فى هذه الحال ؟

قيل : اختلف فى حكمه [أى الصبر] هل هو حرام أم مباح على قولين : فقال بعض أصحاب الإمام أحمد بجواز الصبر[2] . وقال كثير من الحنابلة والشافعية : يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصيا لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف .

ومن الصبر المحظور : صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه ؛ من سبع أو حية أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله .

وهذا بخلاف استسلامه وصبره فى الفتنة وقتال المسلمين ، فإنه مباح له ، بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة - وقد سئل النبى ﷺ عن هذه المسألة بعينها فقال : « كن كخير ابنى آدم »[3] وفى لفظ : « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل »[4] .

---

(١) المسألة : أى سؤال الناس أن يطعموه .

(٢) وظاهر لفظ الإمام أحمد أن الصبر عن المسألة جائز ، فإنه قيل له : إذا خاف إن لم يسأل أن يموت ، فقال : لا يموت ... يأتيه الله برزقه ، أو كما قال : يعنى أن الله سبحانه متى علم ضرورته وصدقه فى ترك المسألة فإنه ييسر له الرزق .

(٣) أخرجه أبو داود [٤٢٥٩] ، والترمذى [٢٢٠٤] وقال هذا حديث حسن غريب صحيح ، وابن ماجه [٣٩٦١] ، والبيهقى [١٩١/٨] من حديث أبى موسى الأشعرى . ولفظ الترمذى [كونوا كابن آدم] . وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح ابن ماجه برقم [٣٢٠٠] ، .

(٤) أخرجه أحمد [١٦٠/٥] ، والطبرانى [٦٠/٤] عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم عن عبد الله بن خباب عن أبيه . وفيه قصة قال الألبانى فى إرواء الغليل [١٠٣/٨]: ورجاله ثقات غير الرجل الذى لم يسم . وله شاهد عند الطبرانى [١٧٧/٢] ، من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن جندب بن سفيان .

قال الألبانى فى إرواء الغليل [١٠٤/٨]: وهذا إسناد جيد بالذى قبله فإن شهرًا إنما نخشى منه سوء الحفظ ، ومتابعة ذلك الرجل القيسى إياه دليل على أنه قد حفظ . والله أعلم .

وهذا بخلاف قتل الكافر ، فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه ، لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين[1] .

ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة .

وأما الصبر المكروه فله أمثلة :

(**أحدها**) : أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه .

(**الثانى**) : صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر هو به .

(**الثالث**) : صبره على فعل المكروه .

(**الرابع**) : صبره عن فعل المستحب .

وأما الصبر المباح : فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين[2] خُيِّر بين فعله وتركه والصبر عليه .

---

(١) وفى قتال اللصوص تفصيل ، قال ابن القيم : فإن كان عن معصوم غيره وجب ، وإن كان عن نفسه فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع ، وأوجبه بعضهم .

(٢) أى مباح فعله وتركه .

الباب الثامن :

بيان تفاوت درجات الصبر(*)

الصبر كما تقدم نوعان : اختيارى واضطرارى .

والاختيارى أكمل من الاضطرارى ، فإن الاضطرارى يشترك فيه الناس ، ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختيارى . ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز ، وصبره على ما ناله فى ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من أخوته لما ألقوه فى الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد .

وكذلك صبر الخليل ﷺ ، والكليم ، وصبر نوح ، وصبر المسيح ، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ، عليهم الصلاة والسلام ، كان صبرا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ، ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

وأولو العزم هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ [الشورى : ١٣] ، وفى قوله : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ [الأحزاب : ٧] .

ونهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال : ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم** ﴾ [القلم : ٤٨] ، أى لا تكن مثله فى ضعف صبره لحكم ربه .

(*) إن الصبر الذى يقوم به الإنسان مختارًا هو من أكمل الصبر ، ولذلك فإنه هو الصبر الذى يتعلق بالتكاليف الشرعية (الأوامر والنواهى) وهو صبر الرسل وأتباعهم . والصبر على الأوامر أعظم من الصبر عن النواهى ، بل إنه يتضمن فى داخله الصبر عن النواهى ، لأنه لا يتم القيام بالأوامر على الوجه الأكمل إلا بترك المنهيات .

الشـكوى إلى الله لا تناف الصـبر

والله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر ، فأثنى على يونس فى قوله : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] . وكذلك أثنى على أيوب بقوله : ﴿ **مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وعلى يعقوب بقوله : ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وعلى موسى بقوله : ﴿ **ربى إنى لما أنزلت إلى من خير فقير** ﴾ [القصص : ٢٤] وشكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله : ﴿ **اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى** ﴾[١] .

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافى الصبر الجزيل ، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر . والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه .

وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾ [المؤمنون : ٧٦] ، والعبد أضعف من أن يتجلد[٢] على ربه ، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه ، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه ، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ، ويحب من يشكو ما به إليه . وقيل لبعضهم : كيف تشتكى إليه ما ليس يخفى عليه ؟ فقال : ربى يرضى ذل العبد إليه .

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع [٦/٣٥] :رواه الطبرانى وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات .
قال الألبانى فى (دفاع عن الحديث النبوى والسيرة) : وابن إسحاق مدلس وقد عنعنه . وضعفه فى ضعيف الجامع رقم [١٢٨٠] .

(٢) التجلد : هو إظهار الصبر والقوة وشدة التحمل ، وعدم الشكوى .

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً ، وهذا أكمل الصبر . ولهذا دارت الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

أى أنواع الصبر أفضل ؟

فإن قيل : أى أنواع الصبر الثلاثة أكمل : الصبر على المأمور ، أم الصبر عن المحظور ، أم المصبر على المقدور ؟

قيل : الصبر على الأوامر والنواهي (وهو الصبر المتعلق بالتكليف) أفضل من الصبر على مجرد القدر ، فإن هذا الأخير يأتى به البر والفاجر والمؤمن والكافر ولابد لكل أحدٍ من الصبر عليه اختيارا أو اضطرارا .

وأما الصبر على الأوامر والنواهى فصبر أتباع الرسل ، وأعظمهم اتّباعا أصبرهم فى ذلك ، وكل صبر فى محله وموضعه أفضل : فالصبر عن الحرام فى محله أفضل ، والصبر على الطاعة فى محلها أفضل .

فإن قيل : أى الصبرين أحب إلى الله : صبر من يصبر على أوامره ، أم صبر من يصبر عن محارمه ؟

قيل : هذا موضع تنازع فيه الناس . فقالت طائفة : الصبر عن المخالفات أفضل لأنه أشق وأصعب ، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون ، ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شيء وأفضله . ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو إليها : نفس الإنسان ، وشيطانه ، وهواه ، ودنياه ، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة وذلك أشق شيء على النفوس وأمرُّه .

وقالت طائفة أخرى : بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على ترك المحظور ، لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور . وبيان ذلك من وجوه :

(منها) : إن فعل المأمور مقصود لذاته ، فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام فى خدمته هو الغاية التى خلق لها الخلق وثبت بها الأمر . وكل ذلك أمر مقصود لذاته .

والمنهيات إنما نهى عنها لأنها صادة عن ذلك ، أو شاغلة عنه ، أو مفوتة لكماله ، وسائر ما حرمه الله إنما حرمه لذلك . وما كان من المنهيات أكثر صدا عن ذلك أو أكثر إشغالا عنه ، أو أكثر تفويتا لكمال الإنسان ، فإن ربنا سبحانه قد شدد فى تحريمها .

(ومنها) : أن المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبته والتوكل عليه والإنابة إليه ، فمتعلقها : ذات الرب تعالى وأسماؤه وصفاته . ومتعلق المنهيات : ذوات الأشياء المنهى عنها . والفرق من أعظم ما يكون .

(ومنها) : أن ضرورة العبد وحاجته إلى فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك المحظور ؛ فإنه أحوج ما يكون إلى معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له وإفراده بالعبودية والمحبة والطاعة . وترك المنهى إنما شرع له تحصيلا لهذا الأمر الذى هو ضرورى له وما أحوجه وأفقره إليه .

(ومنها) : أن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين : ترك المأمور وفعل المحظور . ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود فى النار . ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلدا فى السعير . والفرق بين الأمرين واضح ، بل لا مجال للمقارنة بينهما .

(ومنها) : أن ارتكاب المحظورات جميعها من أولها إلى آخرها يسقط بالتوبة ، ولا تسقط المأمورات بالمخالفة ، إلا بالشرك والوفاة عليه .

(ومنها) : أن ذنب الأب كان بفعل المحظور ، فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . وذنب أبليس كان بترك المأمور ، فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه .

(ومنها) : أن المأمور محبوب إلى الرب . والمنهى مكروه له ، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى .

أما من عبده : فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك . وأما من نفسه : فبالمغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه ، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه ، وغير ذلك .

(ومنها) : أن ترك المحظور لا يكون قربة ما لم يقارنه فعل المأمور ، فلو ترك العبد كل محظور لم يثبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الإيمان ، وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قربة حتى يقاربه نية تركه لله . ولا يفتقر فعل المأمور فى كونه قربة وطاعة إلى ترك المحظور ، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبدا .

(ومنها) : أن المأمور الحسنة فيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . والمحظور السيئة فيه بمثلها ، وربما زال أثره بالتوبة أو الاستغفار ، أو الحسنات الماحية ، أو المصائب المكفرة ، أو استغفار الملائكة للمؤمنين ، أو استغفار بعضهم لبعض ، وغير ذلك . وهذا يدل على أن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور .

(ومنها) : أن المنهيات يمحوها الله سبحانه بشيء مما تقدم ذكره — هذا فى حياة الإنسان ، أو بتشديد الموت وكربه عند مفارقته الدنيا ، أو بهول المطلع وروعة الملكين فى القبر وضغطته وعصرته له ، أو بشدة الموقف وعنائه وصعوبته ، أو بشفاعة الشافعين ، أو برحمة أرحم الراحمين فإن عجزت عنه هذه الأمور فلا بد له من دخول النار ، ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه ودرنه . وأما المأمورات فلا يبطلها إلا الشرك .

(ومنها) : أن جزاء المأمورات الثواب ، وهو من باب الإحسان وفضل والرحمة . وجزاء المنهيات العقوبة وهى من باب الغضب والعدل . ورحمته سبحانه تغلب غضبه .

(ومنها) : أن متعلق المأمورات : الفعل وهو صفة كمال ، ومتعلق النهى : الترك ، والترك عدم ، والعدم ليس بكمال . فترك المنكر لا يكون كمالا إلا إذا ارتبط بفعل المأمور الذى يضاده ، مثال ذلك : لو ترك إنسان السجود للصنم لم يكن كماله فى مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله ، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالا .

وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمنا (بل هو كافر) ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب والموالاة والطاعة له .

(ومنها) : أن العبد إذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهى عنه ولابد ، فالمنهى عنه فى الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة . أما إذا ترك المنهى عنه فقط فإنه لا يكون قد أدى ما أمر به ، فيحتاج إلى أن يأتى به .

(ومنها) : أن الله سبحانه لم يعلق محبته لعبده إلا بأمر وجودى أمره به ، ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا فى موضع واحد ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويحب المحسنين ، ويحب الشاكرين ، ويحب الصابرين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص ، ويحب المتقين ويحب الذاكرين ، ويحب المتصدقين . فهو سبحانه إنما علق محبته بأوامره إذ هى المقصود من الخلق والأمر ، كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فما خلق الخلق إلا لقيام أوامره ، وما نهاهم إلا عما يصدهم عن قيام أوامره أو يعوقهم عنها .

(ومنها) : أن المنهيات لو لم تصد عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذى أمر الله بها لم يكن للنهى عنها معنى . وإنما نهى عنها لمضادتها لأوامره وتعويقها وصدها عنها ، فالنهى عنها من باب التكميل والتتمية للمأمور ، فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجرى فى مجاريه غير مُعوَّق .

قالوا : وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر ، وبه يسهل الصبر عن المحذور والصبر على المقدور .

الباب التاسع :

انقسام الصبر إلى محمود ومذموم(*)

الصبر ينقسم إلى قسمين : قسم مذموم وقسم ممدوح .

فالمذموم : الصبر عن الله وعن محبته وسير القلب إليه ، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له . وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه ، فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذى لا حياة له بدونه البتة ، وفى هذا قيل :

الصبر يحمد فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وقيل : « الصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء » .

وقد أجمع الناس أن الصبر عن المحبوب غير محمود ، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه فى محبته ؟! ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وأما الصبر المحمود فنوعان : صبر لله ، وصبر بالله ، قال الله تعالى : **﴿ وأصبر وما صبرك إلا بالله ﴾** [النحل : ١٢٧] وقال : **﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾** [الطور : ٤٨] .

وقد تنازع الناس أى الصبرين أكمل ، فقالت طائفة : الصبر لله أكمل . وقالت طائفة : الصبر بالله أكمل ، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به كما قال تعالى :

(*) ينقسم الصبر إلى قسمين : مذموم ، وممدوح . والمذموم هو الصبر عما يقرب الإنسان إلى ربه (سواء كان صبرا عن محبته والتقرب إليه بالطاعة ، أو صبرا على القيام بمعصيته وعدم النزوع منها) .

والصبر المحمود – وهو عكس ذلك – وينقسم إلى نوعين : صبر لله (على أوامره ، واجتناب نواهيه ، والرضا بقضائه) . وصبر بالله (وهو الذى يكون بعون الله ، ويكون بمعيته سبحانه) .

﴿ **واصبر** ﴾ فأمره بالصبر ، والمأمور به هو الذى يفعل لأجله ، ثم قال : ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التى تقدمتها ، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به . وذلك يتضمن أمرين : الاستعانة به ، والمعية الخاصة التى فى مثل قوله : « فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى »[1] وهى المعية الحاصلة لعبده الذى تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوبا له ، فبه يسمع وبه يبصر ، وكذلك به يصبر. فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه ، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله ومن لم يكن الله معه فلا يستطيع الصبر لأمر الله : امتثالا وتبليغا وتنفيذا ، وعلى قدره : احتمالًا له واضطلاعًا به فلا يطمع فى درجة الصبر المحمود ، كما لا يطمع فى درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله .

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله ، وأن العبد بحسب نصيبه عن معية الله له يكون صبره ، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتى من الصبر بما لا يأتى به غيره ، قال أبو على : « فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته قال تعالى : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣] »[2] .

---

(١) قال الشيخ الألبانى فى صحيحته [١٩١/٤] :

قد ذكرها الحافظ – يعنى ابن حجر فى الفتح – فى أثناء شرحه للحديث نقلًا عن الطوفى ولم يعزها لأحد .

(٢) وذكر بعضهم أقساما أخرى للصبر المحمود ، ولا تخرج عن هذين القسمين عند التحقيق .

الباب العاشر :

الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كل أحد لابد له أن يصبر على بعض ما يكره ، إما اختيارًا وإما اضطرارا . **فالكريم** يصبر اختيارًا ؛ لعلمه بحسن عاقبة الصبر ، وأنه يحمد عليه ويذم على الجزع ، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتا ولم ينتزع عنه مكروها ، وأن المقدور لا حيلة فى دفعه ، وما لم يقدر لا حيلة فى تحصيله ، فالجزع ضره أقرب من نفعه .

وأما اللئيم : فإنه يصبر اضطرارا ، فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدى عليه شيئا ، فيصبر كما يصبر الموثق للضرب .

وأيضا فالكريم يصبر فى طاعة الرحمن ، واللئيم يصبر فى طاعة الشيطان . فاللئام أصبر الناس فى طاعة أهوائهم وشهواتهم ، وأقل الناس صبرا فى طاعة ربهم ، فيصبر على البذل فى طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل فى طاعة الله فى أيسر شيء ، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه فى مرضاة شيطانه ولا يصبر على أدنى المشاق فى مرضاة ربه .

وجملة القول : أن اللئيم لا يصبر على الطاعة ، وهو أصبر الناس على المعصية ، وهذا أعظم اللؤم ، ولا يكون صاحبه كريما عند الله ، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودى بهم يوم القيامة على رؤس الأشهاد .

الباب الحادى عشر :

الأسباب التى تعين على الصبر(*)

لما كان الصبر مأمورا به جعل الله سبحانه له أسبابًا تعين عليه وتوصل إليه . والصبر وإن كان شاقا كريها على النفوس فتحصيله ممكن ، وهو يتركب من مفردين : العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التى تداوى بها القلوب والأبدان .

فأما الجزء العلمى : فهو إدراك ما فى المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال ، وإدارك ما فى المحظور من الشر والضر والنقص فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغى أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية . وضم إلى هذا الجزء هذا الجزء ، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر ، وهانت عليه مشاقه ، وحلت له مرارته ، وانقلب ألمه لذة .

وقد تقدم أن الصبر : مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس ، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له وإضعاف الآخر ، كالحال مع القوة والمرض سواء .

دواء العشق

فإذا قوى باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه ، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه ، أو يملكه ولكن لا يملك قلبه بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه فى دنياه وآخرته . فإذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولا بأمور :

(*) أمرنا الله سبحانه بالصبر ، وجعل لنا ما يعيننا على هذا الصبر ، ألا وهو العلم بفائدة المأمور وأضرار المحظور ، ثم بعد ذلك العمل بمقتضى ذلك عن طريق العزيمة الصادقة والهمة العالية . ولقد ضرب لنا ابن القيم – رحمه الله – فى هذا الباب مثالا جيدًا جدًا ، ألا وهو المرض الذى أهلك كثيرًا من الناس وهو مرض العشق ، ثم بين لنا كيف نعالج هذا المرض ، وكيف يكون الصبر فى هذه الحالة .

(**أحدها**) : أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة ، فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة، فيحسم الأمر بتقليلها ، فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم ، فإنه يضعف مجارى الشهوة ويكسر حدتها ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلا .

(**الثانى**) : أن يتجنب محرك الطلب وهو النظر ، فليقصر لجام طرفه ما أمكنه ؛ فإن داعى الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر ، والنظر يحرك القلب بالشهوة ، وفى المسند عنه ﷺ : « النظر سهم مسموم من سهام إبليس »[1] ومن نصب قلبه غرضا فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة ، ومن غض بصره فقد وقى قلبه .

(**الثالث**) : تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام ، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه . وهذا هو الدواء النافع فى حق أكثر الناس ، كما أرشد النبى ﷺ[2] .

(**الرابع**) : التفكر فى المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر . فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان فى المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعى . ولو تكلفنا عدها لفاقت الحصر ، ولكن عين الهوى عمياء[3] .

(**الخامس**) : الفكرة فى مقابح الصورة التى تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره ، فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب . كما قيل :

إذا كثر الذباب على الطعام ... رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه

ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه .

---

(١) أخرجه الحاكم [٣١٤/٣١٣/٤] ، من طريق إسحاق بن عبد الواحد القرشى . ثنا هُشيم به . وقال صحيح الإسناد ورده الذهبى بقوله اسحاق واه . وقال الألبانى فى الضعيفة : ضعيف جدًا [١٠٦٥] .

(٢) يشير إلى حديث النبى ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وهو حديث صحيح أخرجه أحمد ، والبخارى ومسلم ، والأربعة ، عن ابن مسعود رضى الله عنه . انظر صحيح الجامع برقم (٧٨٥٢) .

(٣) أى أن هوى الإنسان يعميه عن الحقائق مهما كانت واضحة ، وهذا كما قيل : « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » وكما قيل : « حبُّك الشيء يُعمِى ويُصِم » .

فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضى بالمشاركة ، فلينظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة . فإن مكن نفسه من فعل القبائح فنفسه أقبح من نفوس البهائم .

ومن مكنت من نفسها فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها . ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة .

هذه هى أصول إضعاف هذا الداء ، أما تفصيلها فيطول جدا .

تقوية باعث الدين

وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور :

(**أحدها**) : إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصَى وهو يرى ويسمع ، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة .

(**الثانى**) : مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له ، فإن المحب لمن يحب مطيع ، وأفضل الترك ترك المحبين ، كما أن أفضل الطاعة طاعتهم . فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد .

(**الثالث**) : مشهد النعمة والإحسان . فيمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته ، حياءً منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلا إليه ، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه ، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بذاك ، فأقبح بها من مقابلة .

(**الرابع**) : مشهد الغضب والانتقام . فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد فى معصيته غضب ، وإذا غضب لم يقم لغضبه شىء .

(**الخامس**) : مشهد الفوات ، وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة . ويكفى فى هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذى أدنى متقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافا مضاعفة ، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذتها وتبقى تَبِعتها ، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة . وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو

مؤمن »[1] قال بعض الصحابة : ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة فإن تاب رجع إليه . وقال بعض التابعين : ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص ، فإن تاب لبسه .

(**السادس**) : مشهد القهر والظفر . فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعا وأتم فرحة . وأما عاقبته فأحمد عاقبة وهى كعاقبة شرب الدواء النافع الذى أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله .

(**السابع**) : مشهد العِوَض . وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها . وليوازن العبد بين الغوض والمعوض عنه فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه .

(**الثامن**) : مشهد المعية ، وهو نوعان : معية عامة ، ومعية خاصة فالعامة : اطلاع الرب عليه وكونه بعينه ، لا تخفى عليه حاله .

والمقصود هنا : المعية الخاصة كقوله : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣] وقوله : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٢٨] وقوله : ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

فهذه المعية الخاصة خير وأنفع للعبد – فى دنياه وآخرته – من قضاء وطره ونيل شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره ، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة فى مدة يسيرة من العمر ؟! وما هى إلا كأحلام نائم أو كظل زائل .

(**التاسع**) : مشهد المباغتة والمعاجلة ، وهو أن يخاف أن يباغته الأجل فيأخذه على غرة ، فيحال بينه وبين ما يشتهى من لذات الآخرة ، فيالها من حسرة ما أمرها وما أصعبها !! لكن لا يعرفها إلا من جربها . وفى بعض الكتب القديمة : « يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم : الحذر الحذر » .

---

(١) أخرجه البخارى [٣٠/١٠] ، ومسلم [٧٦/١] ، والنسائى [٦٤/٨] ، وابن ماجه [٣٩٣٦] ، وأحمد [٣٧٦/٢] ، والحميدى [٤٧٨/٢] ، وابن مندة فى الإيمان [٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢] ، والبيهقى [١٨٦/١٠] ، والبغوى [٨٨/١] ، وابن حبان [٢٠٥/١] ، [٣٠٦/٧] ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(**العاشر**) : مشهد البلاء والعافية . فإن البلاء فى الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها ، والعافية المطلقة هى الطاعات وعواقبها . فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم ، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم .

(**الحادى عشر**) : أن يعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعى الهوى ومقاومته على التدريج قليلًا قليلًا حتى يدرك لذة الظفر ، فتقوى حينئذ همته فى تحصيله . ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوى فيه باعث الشهوة . ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد .

(**الثانى عشر**) : كف الباطل من حديث النفس ، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها حتى لا تصير أمانى . ومتى ساكنها صارت أمانى ، ثم تقوى فتصير هموما ، ثم تقوى فتصير إرادات ، ثم تقوى فتصير عزمًا يقترن به المراد . فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع ما يليه .

(**الثالث عشر**) : قطع العلائق والأسباب التى تدعوه إلى موافقة الهوى . وليس المراد أن لا يكون له هوى ، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه ، ويستعمله فى تنفيذ مراد الرب تعالى ، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله فى معاصيه ، فإن كل شىء من الإنسان يستعمله لله فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان ، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولابد .

فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ، ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله . وهذا فى جميع أبواب الأعمال ، فليس شىء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس .

(**الرابع عشر**) : صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التى ندب عباده إلى التفكر فيها ، وهى آياته المتلوة وآياته المجلوة ، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه وسواس الشيطان ومحادثته .

(**الخامس عشر**) : التفكر فى الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها ، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعًا إلا ساقط الهمة دنىء

المروءة ميت القلب . فما أشد حسرته إذا ترك ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم .

(**السادس عشر**) : تعرضه على الدوام إلى من القلوب بين إصبعيه وأزِمَّة الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه ، فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما فى الأثر المعروف : « إن لله فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم »[1] . ولعله من كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التى لا يُسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه . فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء ، كما قيل :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبـه ... من جود كفك ما عودتنى الطلبا

والله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء فى أفعاله ولا فى صفاته ، فإنه ما حرمه إلا ليعطيه ، ولا أمرضه إلا ليشفيه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال ، كما قيل : يا آدم لا تجزع من قولى لك اخرج فلك خلقتها وسأعيدك إليها .

(**السابع عشر**) : أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ، ومحنته بين الجاذبين . جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أعلى عليين ، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين . فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهى إلى حيث يليق به من المحل الأعلى ، وكلما أنقاد إلى الجاذب الأسفل نزل درجة حتى ينتهى إلى موضعه من سجين .

والمرء مع من أحب ، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله ، وكل أمرىء يصبو إلى ما يناسبه ، وقد قال تعالى : ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ [الإسراء : ٨٤] فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى ، والنفوس السافلة إلى أسفل .

---

(١) قال العراق فى تعليقه على الإحياء [١٨٦/١] : رواه الحكيم فى النوادر والطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ، ولابن عبد البر فى التمهيد نحوه فى حديث أنس ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الفرج من حديث أبى هريرة ، اختلف فى إسناده .

(**الثامن عشر**) : أن يعلم العبد أن تفريغ المحل[1] شرط لنزول غيث الرحمة ، وتنقية من الدَّغَل[2] شرط لكمال الزرع . فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة قابلا ينزل فيه ، وإن فرغه حتى أصابه غيث ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعا كاملا ، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له . وهذا كالذى يصلح أرضه ويهيؤها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث .

فإذا طهر العبد قلبه وفرغه من إراداتِ السوء وخواطرِه ، وبذر فيه بذر الذِّكر والفكر والمحبة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة ، وانتظر نزول غيث الرحمة فى أوانه كان جديرًا بحصول البقل[3] .

وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث فى وقته ، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله فى الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة ، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة ، فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة ، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها ، بل هذه الأسباب فى حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية فى حصول مسبباتها ، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب ، وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه .

ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب ، فإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذى فى العبد ، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب . فتأمل حال نهر عظيم يسقى كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين الأرض المعطشة المجدبة سد كثيف ، فصاحبها يشكو الجدب ، والنهر إلى جانب أرضه .

(**التاسع عشر**) : أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له ، ولعز لا ذل معه ، وأمن لا خوف فيه ، وغناء لا فقر معه ، ولذة لا ألم معها ، وكمال لا نقص

---

(١) المراد تفريغ القلب مما سوى الله ، من الأهواء والشهوات وما إليها .

(٢) الدغل : الفساد .

(٣) البقل : هو أول النبات . أو ما لا ساق له من النبات . وفى طبعة دار التراث أثبتها « المقل » وفى طبعة مكتبه المتنبى « المغل » . ولعل ما أثبتناه هو الصواب .

فيه . وامتحنه فى هذه الدار بالبقاء الذى يسرع إليه الفناء ، والعز الذى يقارنه الذل ويعقبه الذل ، والأمن الذى معه الخوف وبعده الخوف ، وكذلك الهناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذى هنا مشوب بضده ، لأنه يتعقبه ضده ، وهو سريع الزوال . فغلط أكثر الخلق فى هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه فى غير محله ، ففاتهم فى محله . والبصير الموفق من يجتاز بنظره من الأوائل إلى الأواخر ، ومن المبادى إلى العواقب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(**العشرون**) : أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ فى حصول المقصود ، بل لابد أن يضيف إليه بذلك الجهد فى استعماله ، واستفراغ الوسع والطاقة فيه . ومِلاك ذلك الخروج عن العوائد[1] فإنها أعداء الكمال والفلاح ، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا . ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب من مظانّ الفتنة والبعد عنها ما أمكنه ، وقد قال النبى ﷺ : « ومن سمع بالدجال فلينأ عنه »[2] ، فما استُعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه .

وها هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق ، وهى أن يظهر له فى مظان الشر بعض شىء من الخير ويدعوه إلى تحصيله ، فإذا قرب منه ألقاه فى الشبكة[3] ، والله أعلم .

(١) أى عدم التقيد بالعادات والموروثات . بل الثورة على كل ما ليس له أصل يعضده فى الدين .

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣١٩] ، وأحمد [٤٣١/٤] ، والحاكم [٥٣١/٤] من حديث عمران بن حصين . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٦٣٠١] .

(٣) وقصة عابد بنى إسرائيل – الذى أوقعه الشيطان فى الزنا ، ثم فى القتل ثم فى الشرك – قصة مشهورة وهى مذكورة فى الأحاديث الصحيحة . وقد كان الشيطان زين له بداية ذلك بالإحسان إلى المرأة والتخفيف عن نفسها ، حتى أوقعه فيما أوقعه فيه .

الباب الثاني عشر :

أهمية الصبر للإنسان فى جميع أحواله(*)

الإنسان يتقلب دائما بين : أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدر يجرى عليه اتفاقا ، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها . وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات .

وكل ما يلقى العبد فى هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده ، والآخر يخالفه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل منهما .

أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة ، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه :

(**أحدها**) : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذى لا يحب الله أهله .

(**الثانى**) : أن لا ينهمك فى نيلها ويبالغ فى استقصائها ، فإنها تنقلب إلى أضدادها . فمن بالغ فى الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده ، وحُرم الأكل والشرب والجماع .

(**الثالث**) : أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيُسلَبها .

(**الرابع**) : أن يصبر عن صرفها فى الحرام . فلا يمكن نفسه من كل ما تريده فإنها توقعه فى الحرام ، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته فى المكروه .

(*) الإنسان محتاج دائما إلى الصبر فى جميع أحواله ؛ فى حال الطاعة حتى يوفيها جميع مقاماتها ، وفى حال المباحات حتى لا يتعدى فيها ولا يجعلها كل همه ، وأشد الصبر هو الصبر عن الهوى والشهوات ، وكذلك يحتاج العبد إلى الصبر على قدر الله والرضا به ، كما يحتاج إلى الصبر على مرارة معالجة النفس من البلاء (الذنب) الذى تمكن منها . فالصبر لازم للعبد إلى الممات .

مرارة الصبر على ما يوافق الهوى

قال بعض السلف : « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون » . وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾ [المنافقون : ٩] وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم** ﴾ [التغابن : ١٤] وليس المراد من هذه العداوة عداوة البغضاء والمحادة ، بل إنما هى عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر ، كما فى جامع الترمذى من حديث ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم** ﴾ قال : « هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم** ﴾ الآية[1] .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده ، وفى الحديث : « الولد مبخلة مجبنة »[2] .

وإنما كان الصبر على السراء شديدا لأنه مقرون بالقدرة . والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره ، وكذلك الشَّبِق[3] عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها .

(١) أخرجه الترمذى [٣٣١٣] ، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى رقم [٢٦٤٢] .

(٢) أخرجه البزار [١٨٩٢] من حديث أبى سعيد بلفظ [الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة ، محزنة] ، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع رقم [٧١٦٠] .

(٣) الشبق :هو من اشتدت شهوته إلى الجماع .

الصبر على ما يخالف الهوى

وهذا النوع لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد : كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط أوله باختياره : كالمصائب ، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له فى إزلته بعد الدخول فيه . فهذه ثلاثة أقسام .

(أ) **ما يرتبط باختيار العبد** : وهو جميع أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية . فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية .

أما فى الصلاة فلما فى طبعها من الكسل وإيثار الراحة ، ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة . فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها ، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفا ، غائب القلب . ذاهلا عنها ، طالبا لفراقها كالجالس إلى الجيفة .

وأما الزكاة فلما فى النفس من الشح والبخل . وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعا .

ويحتاج العبد هنا إلى الصبر فى ثلاثة أحوال :

أحدها : قبل الشروع فى الطاعة : بتصحيح النية ، والإخلاص ، وتجنب دواعى الرياء والسمعة ، وعقد العزم على توفية الطاعة حقها .

الثانية : الصبر حال العمل : فيلازم العبد الصبر عن دواعى التقصير فيه والتفريط ، ويلازم الصبر على مصاحبة ذكر النية ، وعلى حضور القلب بين يدى المعبود ، وأن لا ينساه فى أمره ، فليس الشأن فى فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره . فهذه عبادة العبيد المخلصين لله .

فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها ، وإلى الصبر على مصاحبة ذكر المعبود فيها ، ولا يشتغل عنه بعبادته ، فالقلب يكون حاضرا مع الله والجوارح قائمة بعبوديته .

الثالثة : الصبر بعد الفراغ من العمل . وذلك من وجوه :

الأول : أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، فليس الشأن الإتيان بالطاعة ، إنما الشأن فى حفظها مما يبطلها .

الثانى : أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها ، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصى .

الثالث : أن يصبر عن نقلها من السر إلى العلانية ، فإن العبد يعمل العمل سرًا بينه وبين الله سبحانه فيُكتب فى ديوان السر ، فإن تحدث به نُقل إلى ديوان العلانية .

كيفية الصبر عن المعصية

وأما الصبر عن المعاصى فأمره ظاهر ، وأعظم ما يعين عليه. قطع المألوفات ، ومفارقة الأعوان عليها فى المجالسة والمحادثة ، وقطع العوائد[1] فإن العادة طبيعة خاصة ، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما .

(ب) **الصبر على ما لا يرتبط باختيار العبد** : وهو ما ليس للعبد حيلة فى دفعه ، كالمصائب التى لا صنع للعبد فيها ، كموت من يعز وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك ، وهذا نوعان : أحدهما : ما لا صنع للعبد الآدمى فيه ، والثانى : ما أصابه من جهة آدمى مثله ، كالسب والضرب وغيرهما .

فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات :

الأول : مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط ، وهذا لا يفعله إلا أقل الناس عقلا ودينا ومروءة . وهو مصيبة أعظم من المصيبة التى يشكو منها الإنسان ويسخط .

---

(١) جمع عادة .

الثانى : مقام الصبر ، إما لله وإما للمروءة الإنسانية .

الثالث : مقام الرضا ، وهو أعلى من مقام الصبر .

الرابع : مقام الشكر ، وهو أعلى من مقام الرضا . فإن العبد يشهد البلية نعمة فيشكر عليها .

الصبر على أذى الناس

وللعبد فيه هذه المقامات الأربعة ، ويضاف إليه أربعة أخر :

أحدها : مقام العفو والصفح .

الثانى : مقام سلامة القلب من إرادة التشفى والانتقام ، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها .

الثالث : مقام شهود القدر . وأنه وإن كان العبد ظالما بإيصال هذا الأذى إليك فالذى قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم . وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة فى دفعه ، فالمتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم ، والكل جارٍ بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه .

الرابع : مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك . وفى هذا المقام من الفوائد ما لا يعلمه إلا الله ، فإن فات العبد هذا المقام العالى فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها .

(حـ) ما يكون وروده باختيار العبد ، فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار ولا حيلة فى دفعه : وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار ، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التى لا حيلة فى دفعها بعد مباشرة أسبابها ، كما لا حيلة فى دفع السكر بعد تناول المسكر . فهذا كان فرضه الصبر عنه فى أوله ، فلما فاته بقى فرضه الصبر عليه فى آخره ، وأن لا يطيع داعى هواه ونفسه .

تلاعب الشيطان بأصحاب العشق والبلاء

وللشيطان ها هنا دسيسة عجيبة ، وهى أن يخيل إليه أن نيل بعض ما مُنع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوى ، وغايته أن يكون كالتداوى بالخمر والنجاسة وقد أجازه كثير من الفقهاء .

وهذا من أعظم الجهل ، فإن هذا التداوى لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه . وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه فى هذا الدواء ، بل الدواء النافع لهذا الداء هو الصبر والتقوى كما قال تعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، وقال : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٩٠] . فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين ، ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه .

هل يثاب المبتلى فى صبره على التخلص من بلواه ؟

فإن قيل : فهل يثاب على الصبر فى هذا القسم إذا كان عاصيا مفرطا يتعاطى أسبابه ؟ وهل يكون معاقَبا على ما تولد منه وهو غير اختيارى له ؟

قيل : نعم ، إذا صبر لله تعالى ، وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره ، لأنه جهاد منه لنفسه ، وهو عمل صالح ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وأما عقوبته على ما تولد منه ، فإنه يستحق العقوبة ، كما يعاقب السكران على ما جناه فى حال سكره . فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها ، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها . ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه ، لأن اتباعهم تولد عن فعله .

فإن قيل : فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله ولا اختياره ؟ قيل : التوبة منه بالندم عليه ، وعدم إجابة دواعيه وموجباته ، وحبس النفس عن ذلك . فإن كان المتولد متعلقا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان ، ولهذا كان من توبة الداعى إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة ، وأن الهدى فى غيره .

الباب الثالث عشر :

أشق الصبر على النفوس(*)

إن صبر العبد عن الفعل يشق : إذا كان الداعى لهذا الفعل قويا ، وكان الفعل – فى ذاته – يسيرًا على العبد . فإذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر ، وإن فقدا معا سهل الصبر عنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه .

فمن لا داعى له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ، ولا هو سهل عليه فصبره من أيسر شيء وأسهله . ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه . ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم – وصبر الشاب عن الفاحشة ، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات – عند الله بمكان .

وفى المسند وغيره عن النبى ﷺ : « عجب ربك من شاب ليست له صبوة »(1) والمذكورين فى الحديث بأن الله العظيم يظلهم فى ظل عرشه استحقوا ذلك لكمال صبرهم ومشقته . فإن صبر الإمام ذى السلطان على العدل فى قَسْمه(2) وحكمه ورضاه وغضبه ، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة المسجد ، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه ، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعى ومنصبه ، وصبر المتحابَين فى الله على ذلك فى حال اجتماعهما وافتراقهما ، وصبر الباكى من خشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره للناس ، كل ذلك من أشد الصبر وأشقه .

(*) إن الصبر عن المعصية من أشق الصبر على النفوس ، ولا سيما إذا اجتمع معها تيسر فعلها وقوة الداعى إليها ، فحينئذ يشق الصبر على النفوس حتى يبلغ أشده ، والمعصوم من عصمه الله ، فمن استطاع أن يصبر مع كل ذلك فله أجر عظيم ، كما أن من فعل هذه المعاصى بدون وجود داعيها فله إثم عظيم .

(1) أخرجه أحمد [١٥١/٤] ، والطبرانى [٣٠٩/١٧] من حديث عقبة بن عامر . وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع برقم ١٦٥٨ .

(2) أى قسمته .

ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزانى والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم ؛ لضعف دواعيها فى حقهم ، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته دليلًا على تمردهم على الله وعتوهم عليه .

ولهذا كان الصبر عن معاصى اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعى إليهما وسهولتهما . فإن معاصى اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وحكاية كلام الناس ، والطعن على من يبغضه ، ومدح من يحبه ونحو ذلك . فتتفق قوة الداعى وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر ، ولهذا قال ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك لسانك » فقال : وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟! »[1] .

هذا ، وإذا صارت المعاصى اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها ، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استنادة إلى وسادة حرير لحظة واحدة ، ويطلق لسانه فى الغيبة والنميمة والتفكه فى أعراض الخلق .

وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام ، والقطرة من الخمر ، ومثل رأس الدبوس من النجاسة لا يبالى بارتكاب الفاحشة .

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر فى أنواع المعاصى وآحادها يكون باختلاف الداعى إلى تلك المعصية قوة وضعفا .

ويذكر عن على رضى الله عنه أنه قال : « الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها

---

(١) أخرجه الترمذى [٢٦١٦] ، وابن ماجه [٣٩٧٣] ، من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه . وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيحى سنن الترمذى [٢٧٦٢] ، وابن ماجه [٣٩٧٣] ، .

كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة ، ومن صبر عن المعصية خوفًا من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة »[1] .

---

(١) لم أجده موقوفًا .

قال الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين [٢٥/٩] : روى مرفوعًا من حديث على رضى الله عنه رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب « الصبر » وأبو الشيخ فى كتاب الثواب والديلمى فى مسند الفردوس كلهم من طريق عبد الله بن محمد بن زيرك عن عمر بن على عن عمر بن يونس اليمانى عن مدرك بن محمد السلوسى عن رجل يقال له عى عن على رضى الله عنه رفعه . أ.هـ. وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع رقم [٣٥٣٤] .

الباب الرابع عشر :

ذكر ما ورد فى الصبر من نصوص السنة

سبق أن ذكرنا أن الصبر ورد فى القرآن فى تسعين موضعا ، أما فى السنة فقد وردت أحاديث كثيرة تبين معناه ، وفضيلته ، وغير ذلك مما يتصل بالصبر ، فسنذكر بعضها ، وما فيها من فوائد .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « مر النبى ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكى ، فقال لها : يا أمة الله اتّقى الله واصبرى ، قالت : يا عبد الله ثكلى . قال : يا أمة الله واتقى الله واصبرى ، وقالت : يا عبد الله لو كنت مصابا عذرتنى . قال : يا أمة الله اتقى الله واصبرى . قالت : يا عبد الله قد أسمعت ، فانصرف عنى . فمضى رسول الله ﷺ ، واتّبعه رجل من أصحابه ، فوقف على المرأة فقال لها : ما قال لك الرجل الذاهب ؟ قالت : قال لى كذا وكذا وأجبته بكذا . قال : هل تعرفينه ؟ قالت : لا . قال : ذلك رسول الله ﷺ . قال : فوثبت مسرعة نحوه حتى انتهت إليه وهى تقول : أنا أصبر أنا أصبر يا رسول الله ، فقال : « الصبر عند الصدمة الأولى ، الصبر عند الصدمة الأولى »[1] .

قال أبو عبيد : معناه أن كل ذى رزية فإن قصاراه الصبر ، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها .

قلت : وفى الحديث أنواع من العلم :

(**احدها**) : وجوب الصبر على المصائب ، وأنه من التقوى التى أُمر العبد بها .

(**الثانى**) : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن سكر المصيبة وشدتها لا يسقطه عن الآمر الناهى .

(**الثالث**) : تكرار الأمر والنهى مرة بعد مرة ، حتى يُعذِر المرء إلى ربه .

---

(١) أخرجه أبو يعلى [١٠/٤٥٣] ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وقال محققه إسناده ضعيف .

(**الرابع**) : احتُج به على جواز زيارة النساء للقبور ، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر ، ولو كانت الزيارة حراما لبين لها حكمها ، وهذا كان فى آخر الأمر فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة .

وأجيب على هذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر ، وهذا إنكار منه لحالها من الزيارة والبكاء . ويدل عليه أنها لما علمت أن الآمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة . وأيضا : فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه . ولو شهدها فلعنته ﷺ لزائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا فى مرض موته .

وفى عدم تعريفه لها بنفسه – فى تلك الحال التى لا تملك فيها نفسها – شفقة منه ورحمة بها إذا عرفها بنفسه فى تلك الحال ، فربما لم تسمع منه فتهلك ، وكان معصيتها له وهى لا تعلم أنه رسول الله أخف من معصيتها له لو علمت به . فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه .

وفى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها » قالت : فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين خير من أبى سلمة ؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسوله ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له ، فقلت : إن لى بنتا وأنا غيور ، فقال : « أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها ، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة » فتزوجت رسول الله ﷺ[1] .

فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضا عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم خلق على الله .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟

---

(١) أخرجه مسلم[٢/٦٣١ /عبد الباق] ، والبيهقى [٤/٦٥] ، والبغوى [٥/٢٩٤] من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجعك . فيقول : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد »[1] .

وفى صحيح البخارى من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة »[2] يريد : عينيه .

وفيه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : ما لعبدى جزاء إذا قبضت صَفِيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة »[3] .

وفى صحيحه أيضا عن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى ابن عباس : « ألا أريك أمرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : « يا رسول الله إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى ، قال : إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك . فقالت : أصبر ، فقالت : إنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها »[4] .

وفى الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فقال : انظرا[5] ماذا يقول لعواده . فإن هو إذا جاؤه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : إن لعبدى علىَّ إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، وأن أكفر عنه سيئاته »[6] .

---

(١) أخرجه الترمذى [١٠٢١] ، وقال حديث حسن غريب ، والبغوى [٤٥٦/٤] ، وابن حبان [٢٩٣٧] ، من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٧٩٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه [١١٦/١٠/فتح] ، والأدب المفرد [٥٣٤] ، وأحمد [١٤٤/٣] من حديث أنس رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى [٢٤٢/١١/فتح] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ [يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا ..... .

(٤) أخرجه البخارى [٥٦٥٢/فتح] ، ومسلم [١٩٩٤/٤/عبد الباق] ، والبخارى فى الأدب المفرد [٥٠٥] من حديث ابن عباس رضى الله عنه .

(٥) فى طبعة دار التراث والمتنبى : انظروا (انظر) ، والتصويب من الموطأ بترقيم عبد الباق .

(٦) أخرجه مالك [٩٤٠/٢] ، وإسناده مرسل .

وفى صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الخلائق نادى منادٍ : أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس وهو قليلون فينطلقون سراعا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إنا نراكم سراعا إلى الجنة فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل . فيقولون ما كان فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظُلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا غفرنا ، وإذا جهل علينا حلمنا . فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين »[1] .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قسم مالا ، فقال بعض الناس : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « رحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر »[2] .

وفيهما أيضا من حديث أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[3]ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه »[4] .

وفى صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة »[5] .

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء [١٧٤/٣] ، وقال العراق : رواه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال البيهقى فى إسناده ضعف .

(٢) أخرجه البخارى [٤٧٠/١٠/فتح] ، ومسلم [٧٣٩/٢/عبد الباق] ، وأحمد [٣٨٠/١] ، والبغوى [٢٣٩/١٣] ، وابن حبان [٣٩٠٦] ، [٩١٧٩] من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) المرض والوجع .

(٤) أخرجه البخارى [١٠٣/١٠/فتح] ، والبغوى [٢٣٣/٥] من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما .

(٥) أخرجه مسلم [١٩٩٢/٤/عبد الباق] من حديث عائشة رضى الله عنها بلفظ [ما يصيب المؤمن من شوكة ...] .

وفى المسند من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة »(١) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك وعكا شديدا . قال : فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا . قال : أجل ، إنى لأوعك كما يوعك رجلان منكم . قلت : إن لك لأجرين ؟ قال : نعم ، والذى نفسى بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها »(٢) .

وفى بعض المسانيد مرفوعا : « إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك »(٣) .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها عنه ﷺ : « إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد »(٤) .

وفى صحيح البخارى من حديث خباب بن الأرت قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن

---

(١) أخرجه الترمذى [٢٣٩٩] وقال هذا حديث حسن صحيح . وأحمد [٢٨٧/٢] ، [٤٥٠] ، والحاكم [٣٢٦/١] وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى . والبيهقى [٣٧٤/٣] ، والبغوى [٢٤٦/٥] ، وابن حبان [٢٩١٣] من طرق عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة به . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم ١٩٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى [١١/١٠/فتح] ، ومسلم [١٩٩١/٤/عبد الباق] ، وأحمد [٣٨/١] ، والبيهقى [١٩/٧] ، والبغوى [٢٤٢/٥] ، وابن حبان [٢٥٨/٤] من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) أخرجه هناد فى الزهد [٤٠٠] عن حجاج بن جبلة بن سحيم عمن أخبره عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . قال محقق الزهد وإسناده ضعيف لضعف حجاج وهو ابن أرطأة . وإبهام الراوى عن عبد الله بن مسعود .

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٤٩٧] وابن حبان [موارد/١٧٩] من حديث عائشة رضى الله عنها بلفظ [إذا اشتكى المؤمن وأخلصه الله كما يخلص الكير خبث الحديث] .

دينه . والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللّهَ والذئبَ على غنمه . ولكنكم تستعلجون »[١] .

وفى جامع الترمذى عن شيخ من بن مرة قال : قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال ابن أبى بردة ، فقلت : إن فيه لمعتبرا . فأتيته وهو محبوس فى داره التى كان بنى ، وإذا كل شىء منه قد تغير من العذاب والضرب ، وإذا هو فى قشاش[٢] . فقلت له : الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار ، وأنت فى حالتك هذه ، فكيف صبرك اليوم ؟ فقال : ممن أنت؟ قلت : من بنى مرة بن عباد . قال : ألا أحدثك حديثا عسى أن ينفعك الله به ؟ قلت : هات . قال : حدثنى أبو بردة عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يصيب عبدًا نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر . قال : وقرأ : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ [الشورى : ٣٠][٣] .

وفى الموطأ من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال : قال رسول الله ﷺ : « لِيُعزِّ المسلمين فى مصائبهم المصيبةُ بى »[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى [٣٦١٢] [٣٨٥٢] [٦٦٤٣] وأحمد [٣١١/٥] ، [٣٩٥/٦] من حديث خباب بن الأرت .

(٢) ما كان ساقطا لا قيمة له وهى اللقاطة .

(٣) أخرجه الترمذى [١٣٥٢/٥] وقال هذا حديث غريب أ.هـ. قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على المشكاة [٤٩١/١] ، وعلته – يعنى على ضعفه – أنه من رواية عبد الله بن الوازع ، حدثنى شيخ من بنى مرة – وهما مجهولان .

(٤) أخرجه مالك [٢٣٦/١] ، وابن المبارك فى الزهد[١٥٨] ، وإسناده مرسل .

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما أُعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر »[1] .

وفى بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال : « قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو مالهِ أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا »[2] .

وفى جامع الترمذى عنه ﷺ : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »[3] .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة فقال : « مالك ترفرفين ؟ قالت : الحمى لا بارك الله فيها . قال : لا تسبى الحمى فإنها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد »[4] .

ويذكر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من وعك ليلة فصبر ورضى عن الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[5] .

وقال الحسن : إنه ليكفر عن العبد خطاياه كلها بحمى ليلة .

---

(١) أخرجه مالك [٢/٩٩٧] ، ومن طريقة البخارى [٣/٣٣٥/فتح] ، ومسلم [٢/٧٢٩/عبد الباق] ، وأبو داود [٢/١٢١] ، والنسائى [٢٥٨٨] والترمذى [٢٠٣٤] والبيهقى [٤/٨٩٥] ، وابن حبان [٥/٧٥] عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثى عن أبى سعيد الخدرى ، ولفظ البخارى [لن تعطوا عطاء ....] .

(٢) ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » [٢/٨٣] وعزاه إلى الحكيم الترمذى عن أنس ورمز له بالضعف أ . هـ وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع برقم [٤٠٤٨] .

(٣) أخرجه الترمذى [٤/٥١٩] ، وابن ماجة [٤٠٣١] بلفظ [عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط] من حديث أنس رضى الله عنه . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٢٨٥٠] .

(٤) أخرجه مسلم [٤/١٩٩٣/عبد الباق] وهما من حديث جابر رضى الله عنه .

(٥) عزاه السيوطى فى « الجامع الصغير » إلى الحكيم عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ [من مرض ليلة .....] وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع برقم [٥٨٦٨] .

وذكر عن أبى معمر الأزدى قال : كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا ، فقال لنا ذات يوم : ألا إن السَّقِم لا يكتب له أجر . فساءنا ذلك وكبر علينا ، فقال : ولكن يكفر به الخطيئة . فسرنا ذلك وأعجبنا .

وهذا من كمال علمه وفقهه رضى الله عنه ، فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية ومما تولد منها . وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ [الشورى : ٣٠] ، والنبى ﷺ إنما قال فى المصائب كفر الله بها من خطاياه كما تقدم ذكر ألفاظه ﷺ .

وهذا لا ينافى قوله ﷺ : « ما ضرب على مؤمن عرق إلا كتب الله له به حسنة وحط عنه سيئة ورفع له درجة »(١) ، لأن حصول الحسنة إنما هو بصبره الاختيارى على المصائب ، وهو عمل منه .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذى نجاه الله من السيئات . ومنهم من يخرج كالذهب الأسود ، فذلك الذى قد افتتن »(٢) .

وعن أبى ريحانة عن النبى ﷺ : « الحمى كير من كير جهنم ، وهى نصيب المؤمن من النار »(٣) .

---

(١) أخرجه الحاكم [٣٤٧/١] ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى . وقال الحافظ فى الفتح [٢٠٩/١] اسناده جيد .

(٢) أخرجه الطبرانى [٧٦٩٨] والحاكم [٣١٤/٤] من طرق عن عضير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعًا .

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٢٩١/٢] ، فيه عضير بن معدان وهو ضعيف .

(٣) أخرجه أحمد [٢٥٢/٥] من حديث أبى أمامة بلفظ [الحمى من كير جهنم فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار] ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم [٣١٩٠] .

وقال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن إذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها »[1] ذكره ابن أبى الدنيا .

وذكر أيضا عن أبى أمامة يرفعه : « ما من مسلم يُصرَع صرعة من مرض إلا بعث منها طاهرا »[2] .

وقال عطية بن قيس : « مرض كعب فعاده رهط من أهل دمشق ، فقالوا : كيف تجدك يا أبا إسحاق ؟ قال : بخير ، جسد أُخذ بذنبه إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه ، وإن بعثه بعثه خلقا جديدا لا ذنب له » .

وعن أبى أيوب الأنصارى قال : عاد رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار وأكب عليه فسأله فقال : يا نبى الله ما غمضت منذ سبع ، فقال رسول الله ﷺ : « أى أخى أصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها » ثم قال رسول الله ﷺ : « ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا »[3] .

وقال الحسن – وذكر الوجع : أما والله ما هو بشر أيام المسلم . أيام نورت له فيها مراحله ، وذُكر فيها ما نسى من معاده ، وكُفر بها عنه من خطاياه .

وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس .

وإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه ، وإن أخبر بها تبرما وتسخطا كان شكوى منه . فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد يعاقب ، بالنية والقصد .

---

(١) أخرجه البزار [٧٦٢/كشف الأستار] ، والديلمى فى مسند الفردوس [١٤٣/٢/هامش] ، من طرق عن الوليد بن محمد الموقرى عن الزهرى عن أنس بلفظ [مثل المريض .....] وقال العراقى فى تعليقه على الإحياء [٢٨١/٤] إسناده ضعيف .

(٢) أخرجه الطبرانى [٧٤٨٥] من حديث أبى أمامة بلفظ [ما من عبد يصرع .....] وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٥٧٤٣] .

(٣) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير إلى البيهقى فى شعب الإيمان وقال الألبانى فى ضعيف الجامع : ضعيف جدًا رقم [٣٢٠٨] .

ويذكر عن أنس عن النبى ﷺ قال : « إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[1] .

وقال زياد بن الربيع : قلت لأبى بن كعب : آية من كتاب الله قد أحزنتنى قال : ما هى ؟ قلت : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] قال : ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى ، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج[2] عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت : ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ : « يا عائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمى والمليلة[3] والشوكة وانقطاع شسعه ، حتى البضاعة يضعها فى كُمِّه[4] فيفقدها فيفزع لها فيجدها فى ضبنه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير »[5] ضبن الإنسان : ماتحت يده .

وفى بعض كتب الله سبحانه : « إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وإنه ليحبه ، لينظر كيف تضرعه إليه » .

---

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير إلى الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس رضى الله عنه . وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع رقم ٨٠٢ .

(٢) اختلاج : الاختلاج الحركة والاضطراب .

(٣) المليلة : هى حرارة الحمى وتوهجها ، وقيل : هى الحمى التى تكون فى العظام .

(٤) الكم من الثوب مدخل اليد ومخرجها .

(٥) أخرجه الترمذى [٧٨/٤ - ٧٩] ، وأحمد [٢١٨/٦] والطيالسى [١٥٨٤] ، وابن جرير [٦٤٩٥] وابن أبى حاتم فيما نقله عنه ابن كثير [٨٥/٢] ، من طريق على بن زيد عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الأية ﴿ **وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ و ﴿ **من يعمل سُوءًا يجز به** ﴾ فقالت : [ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : يا عائشة ، هذه متابعة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة يضعها فى كمه فيفقدها ، فيفزع لها فيجدُها فى ضِبْنه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير] قال الترمذى [هذا حديث غريب من حديث عائشة] وقال ابن كثير [على بن زيد بن جدعان : ضعيف يغرب فى رواياته . وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد بنت عبد الله عن عائشة وليس لها عنها فى الكتب سواه] .

وقال معروف الكرخى : « إن الله ليبتلى عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع فيشكو إلى أصحابه ، فيقول الله تبارك وتعالى : وعزتى وجلالى ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب ، فلا تشكنى » .

وفى المسند عنه ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاءإلا كان خيرا له ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم [٢٢٩٥] وأحمد [١٦/٦] ، والدارمى [٣١٨/٢] بنحوه من حديث صهيب بن سنان رضى الله عنه .

(*) والأحاديث المرفوعة فى فضل الصبر كثيرة جداً ، اكتفينا منها بهذا القدر .

الباب الخامس عشر :

الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

عن السفر قال : « مرض أبو بكر رضى الله عنه فعادوه ، فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : قد رآنى الطبيب . قالوا : فأى شىء قال لك ؟ قال : قال إنى فعال لما أريد » .

وعن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » وقال أيضا : « أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريما » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بار الجسم . ثم رفع صوته فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » . وقال : « الصبر مطية لا تكبو » .

وقال الحسن : « الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده » .

وقال عمر بن عبد العزيز : « ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه » .

وقال ميمون بن مهران : « ما نال أحد شيئًا من ختم الخير فما دونها إلا الصبر » .

وقال سليمان بن القاسم : « كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [الزمر : ١٠]، قال : كالماء المنهمر » .

وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها ، وفيها : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ [الطور : ٤٨] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبالَ أيهما ركبت » .

وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال : « سحابة صيف ثم تنقشع » .

وقال سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأَمرنا لما صبروا** ﴾ [السجدة : ٢٤] : « لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسا » .

وقيل للأحنف بن قيس : ما الحلم ؟ قال : أن تصبر على ما تكره قليلًا .

وعن قتادة قال : قال لقمان – وسأله رجل : أى شىء خير ؟ قال : صبر لا يتبعه أذى ، قال : فأى الناس خير ؟ قال : الذى يرضى بما أوتى ، قال : فأى الناس أعلم ؟ قال : الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه ، قيل : فما خير الكنز من المال أو من العلم ؟ قال : سبحان الله بل المؤمن العالم الذى إن ابتغى عنده خيرا وجد ، وإن لم يكن عنده كف نفسه ، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه .

وقال حسان بن أبى جبلة فى قوله تعالى : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ [يوسف : ١٨ ، ٨٣] قال : لا شكوى فيه .

وقال مجاهد : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ : فى غير جزع . وقال عمرو بن قيس : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ قال : الرضا بالمصيبة والتسليم .

وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وابيضت عيناه** [illegible] **فهو كظيم** ﴾ [يوسف : ٨٤] قال : كظم على حزن فلم يقل إلا خيرا . وقال يحيى بن المختار عن الحسن : الكظيم : الصبور .

وقال الحسن : ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجرعة غيظ ردها بحلم .

وقال سيعد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، واحتسابه عند الله ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يُرَى منه إلا الصبر .

فقوله : (اعتراف العبد لله بما أصاب منه) كأنه تفسير لقوله : ﴿ **إنا لله** ﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد . وقوله : (راجيا به ما عند الله) كأنه

تفسير لقوله : ﴿ **وإنا إليه راجعون** ﴾ [البقرة : ١٥٦] أى نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة . وقوله : (وقد يجزع الرجل وهو يتجلد) أى ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ، ورد اللسان عن الشكوى . فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر .

وقال يونس بن يزيد : سألت ربيعة بن أبى عبد الرحمن : ما منتهى الصبر ؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه .

وقالت امرأة من قريش :

أما والذى لا خلد إلا لوجهه ... ومن ليس فى العز المنيع له كفو
لئن كان بدء الصبر مرا مذاقه ... لقد يجنى من غبته الثمر الحلو

وقال أحمد بن موسى الثقفى :

نبئت خولة أمس قد جزعت ... من أن تنوب نوائب الدهر
لا تجزعى يا خولُ واصبرى ... إن الكرام بنوا على الصبر

وقال عمر بن عبد العزيز : « أما الرضا فمنزلة عزيزة[١] - أو منيعة - ولكن جعل الله فى الصبر معولا حسنا » ، ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال : « رحمك الله لقد كنت لى وزيرا وكنت لى معينا » قال : والناس يبكون وما يقطر من عينيه قطرة .

وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء .

---

(١) لأنها أعلى من مجرد الصبر ، فالرضا : هو أن يرضى العبد عن كل قضاء قضاه الله عليه ولا يختار لنفسه شيئا ، لأنه علم أن الخير فيما يختاره الله له .

الباب السادس عشر :

أمور تتعلق بالمصيبة
من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

(أ) البكاء :

أما البكاء على الميت فقد كرهه قوم من الفقهاء مطلقا ، وكرهه قوم بعد خروج الروح وأباحوه قبل أن تخرج ، وأجازه قوم . والواضح من الأدلة هو إباحته ولكن بدون أن يقارنه محذور من ندب أو نياحة أو غيرها .

واحتج من كرهه قبل الموت بحديث جابر بن عتيك : « أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غُلب فصاح به ، فلم يُجِب ، فاسترجع وقال : غلبنا عليك يا أبا الربيع . فصاح النسوة وبكين ، فجعل ابن عتيك يسكتهن . فقال رسول الله ﷺ : دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية . قالوا : وما الوجوب يا رسول الله ؟ قال : الموت »[1] .

وبعد الموت بحديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله »[2] .

واحتج المجوزون باثنى عشر دليلا منها :

---

(١) أخرجه مالك [٢٣١/١] ، وأبو داود [٣١١١] والنسائى [١٨/٦] ، والحاكم [٣٥٢/١] وصححه ووافقه الذهبى ، والبيهقى [٧٠/٤] ، والبغوى [٤٣٤/٥] ، وصححه محقق البغوى لشواهده [٣٧٠/٥] .

(٢) أخرجه البخارى [١٥١/٣] ، ومسلم [٤٤١/٢] ، من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

حديث جابر بن عبد الله قال : أصيب أبي يوم أحد فجعلت أبكى فجعلوا ينهوننى ، ورسول الله ﷺ لا ينهانى ، فجعلت عمتى فاطمة تبكى فقال النبى ﷺ : « تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه »[1] .

وحديث ابن عمر قال : « اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبى ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده فى غشية ، فقال : قد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا ، فقال : ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا – وأشار إلى لسانه – أو يرحم »[2] .

قالوا : ونصوص الإباحة أكثرها متأخرة [عن نصوص النهى] .

(ب) الندب والنياحة :

وأما الندب والنياحة فنص أحمد على تحريمهما ؛ قال فى رواية حنبل : النياحة معصية . وقال أصحاب الشافعى وغيرهم : النوح حرام . وقال ابن عبد البر : أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء .

وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد : يكره تنزيها .

والصواب : القول بالتحريم ، لما فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعى بدعوى الجاهلية »[3] .

---

(١) أخرجه البخارى [٣/١١٤/فتح] واللفظ له ، ومسلم [٤/١٩١٨/عبد الباق] من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى [٣/١٧٥/فتح] ، ومسلم [٢/٦٣٦/ عبد الباق] من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه البخارى [٣/١٦٣/فتح] ، ومسلم [١/٩٩/عبد الباق] واللفظ له من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وفى الصحيحين أيضا عن أبى بردة قال : « وجع أبو موسى وجعا فغشى عليه ورأسه فى حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله ، فلم يستطع أن يرد عليها شيئا ، فلما أفاق قال : أنا برىء مما برىء منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة »[1] .

وفى الصحيحين أيضا عن المغيرة بن شعبة قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من يُنَح عليه يُعذَب بما نِيح عليه »[2] .

وفى الصحيحين أيضا عن أم عطية قالت : « أخذ علينا رسول الله ﷺ فى البيعة : ألا ننوح . فما وفت منا امرأة إلا خمس نسوة »[3] .

وفى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »[4] .

وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب[5] .

---

(١) أخرجه البخارى [٣/١٦٥/فتح] ، ومسلم [١/١٠٠/عبد الباق] من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

والصالقة : هى التى ترفع صوتها عند المصيبة ، والصلق : هو الصياح والولولة والصوت الشديد . والحالقة : هى التى تحلق شعرها . والشاقة : هى التى تشق ثيابها . وليس المراد بهذا الحديث النساء فقط ، بل المراد النهى عن الفعل نفسه عند المصائب وقد ورد بألفاظ منها : « ليس منا من سلق ومن حلق ومن خرق » وهو حديث صحيح رواه أبو داود والنسائى عن أبى موسى انظر صحيح الجامع [٥٣١٤] .

(٢) أخرجه البخارى [٣/١٦٠/فتح] ، ومسلم [٢/٦٤٤/عبد الباق] بلفظ [من نيح عليه ....] من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى [٣/١٧٦/فتح] ومسلم [٢/٦٤٥/عبد الباق] من حديث أم عطية رضى الله عنها .

(٤) أخرجه مسلم [٢/٩٤٤/عبد الباق] ، والبيهقى[٤/٦٣] من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم [٢/٦٤٤/عبد الباق] ،والبيهقى [٤/٦٣] ، من حديث أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه .

وفى سنن أبى داود عن امرأة من المبايعات قالت : « كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا أن لا نعصيه فيه : أن لا نخمش وجهًا ، ولا ندعو ويلًا ، ولا نشق جيبا ، ولا ننفش شعرا »[1] .

وفى صحيح البخارى عن النعمان بن بشير قال : « أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول : واجبلاه ، واكذا واكذا ، تُعَدِّد عليه . فقال حين أفاق : ما قلتِ شيئًا إلا قيل لى : أنت كذا ؟ فلما مات لم تبكِ عليه »[2] .

وكيف تكون هذه الخصال محرمة ؟! وهى مشتملة على التسخط على الرب ، وفعل ما يناقض الصبر ، والإضرار بالنفس : من لطم الوجه وحلق الشعر ونتفه والدعاء على النفس بالويل والثبور ، والتظلم من الله سبحانه ، وإتلاف المال : بشق الثياب وتمزيقها ، وذكر الميت بما ليس فيه . ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا[3] .

وأما من أباحوا الندب مع كراهتهم له – واستدلوا بحديثى المبايعة : بأن الرسول قال لامرأة : « إلا آل فلان »[4] ، وسكت عن أخرى[5] ، بعد أن طلبتا منه ﷺ النياحة مشاركة لمن شاركوهما قبل الإسلام – فقد رُد عليهم بأن ذلك خاص بهما لوجهين :

أحدهما : أنه قال لغيرهما لما سألته ذلك : « لا إسعاد فى الإسلام »[6] .

والثانى : أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهدٍ بالإسلام . فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما .

(١) أخرجه أبو داود [٣١٣١] ومن طريقه البيهقى [٦٤/٤] ، وقال الألبانى فى أحكام الجنائز : إسناده صحيح [٣٠] .

(٢) أخرجه البخارى [٥١٦/٧/فتح] ، والبيهقى [٦٤/٤] من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٣) فكيف إذا اجتمعت كل هذه الأمور ؟!

(٤) أخرجه مسلم [٦٤٦/٢/عبد الباقى] ، والبيهقى [٦٢/٤] من حديث أم عطية رضى الله عنها .

(٥) أخرجه البخارى [٥٣٧/٨/فتح] ، ومسلم [٦٤٦/٢/عبد الباقى] ، والبيهقى [٦٢/٤] من حديث أم عطية رضى الله عنها .

(٦) أخرجه النسائى [١٨٥٢] ، وأحمد [١٩٧/٣] ، والبيهقى [٦٢/٤] من حديث أنس رضى الله عنه . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم [٧١٦٨] .

والإسعاد : هو أن تقوم المرأة فى المناحة فتقوم معها جاراتها فيساعدنها ويتابعنها مادامت تنوح عليه وتبكيه

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافى الصبر الواجب ، ومن ذلك ما فى المسند من حديث أنس : « إن أبا بكر دخل على النبى ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صُدغيه ، وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه » .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : « لما ثقل على النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة : واكرب أبتاه ، فقال : ليس على أبيك كرب بعد اليوم . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربًا دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه . فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تُحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟! »[1] .

وقال النبى ﷺ : « وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون »[2] .

وهذا ونحوه من القول الذى ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا إسخاط له فهو كمجرد البكاء .

هل يعذب الميت بالبكاء عليه ؟

وأما قول النبى ﷺ : « إن الميت ليعذب بالنياحة عليه »[3] فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، والمغيرة بن شعبة ، وروى نحوه عن عمران بن حصين ، وأبى موسى رضى الله عنهم . فاختلفت طرق الناس فى ذلك .

فقالت فرقة : يتصرف الله فى خلقه بما يشاء ، وأفعال الله لا تعلل ، ولا فرق بين تعذيبه بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه ، لأن الله خالق الجميع ، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل .

---

(١) أخرجه البخارى [١٤٩/٨/فتح] من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى [١٧٣/٣/فتح] ، وأبو داود [٣١٢٦] واللفظ له من حديث أنس رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم [٦٣٩/٢/عبد الباق] بلفظ [الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه] من حديث عمر رضى الله عنه .

وقالت فرقة : هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ ، وقد أنكرتها السيدة عائشة رضى الله عنها ، واحتجت بقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤ ، وغيرها] ، وقالت : إنما مر النبى ﷺ على قبر يهودية فقال : « إن صاحب هذا القبر يعذب ، وأهله يبكون عليه »[١] .

وقالت فرقة منهم المزنى وغيره : إن ذلك محمول على من أوصى به إذ كانت عادتهم ذلك ، وهو كثير فى أشعارهم كقول طرفة :

إذا مت فانعينى بما أنا أهله ... وشُقى على الجيب يا ابنة معبد

وقالت طائفة : هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينههم عنه ، لأن ترك نهيه دليل على رضاه به ، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك .

معنى العذاب والوارد فى الأحاديث

ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكلفات ، وليس فيها بحمد الله إشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره .

فإن النبى ﷺ لم يقل إن الميت يعاقبُ ببكاء أهله عليه ونوحهم ، إنما قال يعذب بذلك : ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه ، والعذاب : هو الألم الذى يحصل له وهو أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص .

وقد قال النبى ﷺ : « السفر قطعة من العذاب »[٢] .

---

(١) أخرجه البخارى[٣/١٥٢/فتح] ، ومسلم [٢/٦٤٣][٢/٦٤٣] والنسائى [١٨٥٦] من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) أخرجه البخارى [٣/٦٢٢/فتح] ، ومسلم [٣/١٥٢٦/عبد الباق] ، والبيهقى [٥/٢٥٩] ، وابن حبان [٢٦٩٧] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر حتى إن الميت ليتألم بمن يعاقب فى قبره فى جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان فى الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره . فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم – وهو البكاء الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك ، وهو معروف فى نظمهم ونثرهم – تألم الميت بذلك فى قبره ، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه .

الباب السابع عشر :

حقيقة الشكر وما هيته(*)

قال فى الصحاح : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف . يقال : شكرته ، وشكرت له ، وباللام أفصح .

واشتكرت السماء : اشتد وقع مطرها . واشتكر الضرع : امتلأ لبنا . تقول منه : شكرت الشجرة شكرا : إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها . ويقال دابة شكور : إذا أظهرت من السمن فوق ماتعطى من العلف .

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به ، وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور . كيف تجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء .

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورًا إلا بمجموعها :

(**أحدها**) : اعترافه بنعمة الله عليه .

(**والثانى**) : الثناء عليه بها .

(**والثالث**) : الاستعانة بها على مرضاته .

أقوال الناس فى الشكر

قالت طائفة : هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع . وقيل : الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه . فشكر العبد : ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه .

وقيل : شكر النعمة : مشاهدة المنة ، وحفظ الحرمة ، والقيام بالخدمة .

(*) ذكر ابن القيم رحمه الله تنازع الناسي : هل الصبر أفضل أم الشكر ، وأفاض فى دكر حجج كل من الفريقين من القرآن والسنة والآثار . وذكر فى خلال ذلك « حقيقة الشكر وما هيته » فرأينا أن نقدمه ها هنا ، ثم نذكر بعده ملخص الخلاف والتحقيق فى المسألة من خلال مقتطفات من كلام ابن القيم رحمه الله .

وقيل : شكر النعمة : أن ترى نفسك فيها طفيليا [يعنى لا تستحقها] .

وقيل : الشكر معرفة العجز عن الشكر .

ويقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر . وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه ، وذلك التوفيق من أجَلِّ النعم عليك . فتشكره سبحانه على نعمه ، ثم تشكره على توفيقه لك حتى تشكره .

وقيل : الشكر استفراغ الطاقة فى الطاعة .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على الموجود . والشكور الذى يشكر على المفقود .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على الرفد . والشكور الذى يشكر على الرد .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على النفع . والشكور الذى يشكر على المنع .

وقيل : الشاكر الذى يشكر على العطاء . والشكور الذى يشكر على البلاء .

وقال الشبلى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم . وهذا ليس بجيد ، بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم .

وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى .

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال : اللص دخل دارى وأخذ متاعى . فقال : اشكر الله ، فلو دخل اللصُ قلبَك – وهو الشيطان – وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع ؟

وقيل : الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه (أى الإنسان) من عطائه . وقيل : إذا قصُرت يدك عن المكافأة فليطُل لسانك بالشكر . وقيل : أربعة لا ثمرة لهم : مشاورة الأصم ، ووضع النعمة عند من لا يشكرها ، والبَذْر فى السباخ ، والسراج فى الشمس .

كيف يكون الشكر ؟ والفرق بين الشكر والحمد

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للثناء والحمد ، والجوارح لاستعمالها فى طاعة المشكور وكفها عن معاصيه . وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

والشكر أخص بالأفعال ، والحمد أخص بالأقوال . وسبب الحمد أعم من سبب الشكر . ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد . فما يحمد الرب تعالى عليه أعظم مما يشكر عليه ، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه ، ويشكر على نعمه . وما يحمد به أخص مما يشكر به ، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ، ويحمد بالقلب واللسان .

تلازم الصبر والشكر

إذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل فى حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به ، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه ، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل ، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك . فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر .

وليس معنى هذا أنهما شىء واحد ، وإنما المراد أنهما متلازمان ويفتقر كل واحد منهما إلى الآخر فى ماهية وجوده .

الباب الثامن عشر :

تنازع الناس فى الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال :

(**أحدها**) : أن الصبر أفضل .

(**والثانى**) : أن الشكر أفضل .

(**والثالث**) : أنهما سواء ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت » .

وانبنى على هذه المسألة مسألة : الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل ؟

أساس الفضل : التقوى

والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاهما لله تعالى . فإن فُرض استواؤهما فى التقوى استويا فى الفضل ، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقد قال ﷺ : « لا فضل لعربى على عجمى ولا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، الناس من آدم وآدم من تراب »[1] .

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر والشكر . وكل من الغنى والفقير لابد له منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل .

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل ؟ قيل : أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله ، ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة . فإن الغنى قد يكون

---

(١) أخرجه أحمد [٥/٤١١] ، وقال الهيثمى فى المجمع [٣/٢٦٦] : رجاله رجال الصحيح . وقال محقق زاد المسير لابن الجوزى [٧/٤٧٥] : إسناده صحيح .

أتقى لله فى شكره من الفقير فى صبره ، وقد يكون الفقير أتقى لله فى صبره من الغنى فى شكره . فلا يصح أن يقال : هذا بغناه أفضل ، ولا هذا بفقره أفضل . ولا يصح أن يقال : هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ، ولا بالعكس ، لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما .

بل الواجب أن يقال : أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل ، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين ، كما قال تعالى فى الأثر الإلهى : « ما تقرب إلى عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه »[1] ، فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل .

الرسول ﷺ كان أصبر الخلق وأشكرهم

وقد احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين . والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين كليهما على أتم الوجوه ، وكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحل لأحد سواه ، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغنى سواه .

فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك ، فكان ﷺ أصبر الخلق فى مواطن الصبر ، وأشكر الخلق فى مواطن الشكر ، وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله فى أعلى رتب الأغنياء الشاكرين وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين ، قال تعالى : ﴿ **ووجدك عائلا فأغنى** ﴾ [الضحى : ٨] ، وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير ، ويقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر .

فالله سبحانه جعل نبيه غنيا شاكرا بعد أن كان فقيرا صابرا ، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضا لحالها .

---

(١) أخرجه البخارى [١١/٣٤٠/فتح] ، والبيهقى [٢١٩/١٠] ، [٣٤٦/٣] ، والبغوى [١٩/٥] ، وابن حبان [٢٨٠/١] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ [..... ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .....] .

الفقر والغنى مطيتان للابتلاء

والله سبحانه كما هو خالق الخلق ، فهو خالق ما به غناهم وفقرهم ، فخلق الغنى والفقر ليبتلى بهما عباده أيهم أحسن عملا ، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب ، قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام . وكلها بلاء .

وقال ابن يزيد : نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون .

وقال الكلبى : بالشر : بالفقر والبلاء . والخير : بالمال والولد .

فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان . وقال تعالى : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن * كلا** ﴾ [الفجر : ١٥ – ١٧] ، فأخبر سبحانه أنه يبتلى عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه ، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه ، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان . ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده ، وأن تضييقه عليه إهانة منه له ، فقال : ﴿ **كلا** ﴾ أى ليس الأمر كما يقول الإنسان ، بل قد أبتلى بنعمتى وأنعم ببلائى .

وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ [الأنعام : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ [الكهف : ٧] .

فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأَجَلَ العالم وأجل أهله وأسباب معائشهم التى جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير

ذلك ، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ، ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى ، فهو الأحسن عملا .

والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ، كما فى المسند عنه ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له ثانٍ لا بتغى له ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »[1] .

فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ، وإقامة حق عبادة بالزكاة . لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام . فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى به . فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره ، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك . فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له ، وملأه بمحبة المال – الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس – وجمعه والاستكثار منه ، ومع ذلك فلم يمتلىء بل ازداد فقرا وحرصا إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه ، فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله . ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده .

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولابد ، وكذلك العلم والملك والقدرة ، كل ذلك إن لم ينفعه ضره ، فإن الأمور وسائل لمقاصد يُتوسَل بها إليها فى الخير والشر ، فإن عُطِّلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها .

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة ، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسرا ،

---

(١) أخرجه مسلم [٢/٧٢٥/عبد الباق] ، وأحمد [٣/٢٤٣] من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ [لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى إليهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب] .

لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جُعلت له ، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها .

الصبر والشكر ضروريان للمؤمن

وإذا عرف أن الغنى والفقير والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده يمتحن به صبره وشكره ، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يُحمل إلا عليهما ، ولابد لكل مؤمن منهما ، وكل منهما فى موضعه أفضل ، فالصبر فى مواطن الصبر أفضل ، والشكر فى مواضع الشكر أفضل ، هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر وتجريده عنه وهو فرض ذهنى ولا يوجد فى الخارج .

الباب التاسع عشر :

الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها ، كان ما يضاده واقعا على هذه الجملة فمنه : الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه . ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم فى شكاية يعقوب إلى الله مع قوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ [يوسف : ١٨ ، ٨٣] .

الشكوى المباحة

وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضورقة لم يقدح ذلك فى الصبر ، كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه ، وقد كان النبى ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : « كيف تجدك ؟ » وهذا استخبار منه واستعلام بحاله .

هل يقدح الأنين فى الصبر ؟

وأما الأنين فهل يقدح فى الصبر ؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد . قال أبو الحسين : أصحهما الكراهة ؛ لما روى عن طاووس أنه كان يكره الأنين فى المرض .

وقال مجاهد : كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم به ، حتى أنينه فى مرضه .

قال هؤلاء : وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافى الصبر .

والرواية الثانية : أنه لا يكره ، ولا يقدح فى الصبر . قال بكر بن محمد عن أبيه : سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع ، فقال : تعرف فيه شيئا عن رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، حديث عائشة : « وارأساه »[1] وجعل يستحسنه .

والتحقيق : أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روى فى أثر : أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى .

وقال شقيق البلخى : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد فى قلبه حلاوة لطاعة الله أبدا .

أنواع الشكـوى

والشكوى نوعان : شكوى بلسان المقال . وشكوى بلسان الحال ، ولعلها أعظمها . وأعظم من ذلك من يشتكى ربه وهو بخير ، فهذا أمقت الخلق عند ربه .

عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : « إن من حسن العمل سبحة الحديث ، ومن شر العمل التحذيف » . قيل لعبد الله : ما سبحة الحديث ؟ قال : سبحان الله وبحمده فى خلال الحديث . قيل : فما التحذيف ؟ قال : يصبح الناس بخير فيُسألون فيزعمون أنهم بشر .

أمـور أخـرى تنافى الصـبر

ومما ينافى الصبر : شق الثياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى ، وحلق الشعر ، والدعاء بالويل .

ولهذا برىء النبى ﷺ ممن صلق وحلق وخرق . (صلق) : رفع صوته عند المصيبة ، (وحلق) : رأسه : وشق ثيابه .

---

(١) أخرجه البخارى [٥٦٦٦] من حديث عائشة رضى الله عنها .

ولا ينافيه البكاء والحزن . قال تعالى عن يعقوب : ﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ [يوسف : ٨٤] . قال قتادة : كظم على الحزن فلم يقل إلا خيرا .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان »(١) .

وقال بكر بن عبد الله المزني : « كان يقال : من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة » .

وقال عبيد بن عمير : « ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء » .

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال : « القول السيء والظن السيء » .

ومات ابن لبعض قضاة البصرة ، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فاجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع .

وقال الحسين بن عبد العزيز الحورى : مات ابن لى نفيس ، فقلت لأمه : اتقى الله واحتسبيه واصبرى ، فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع .

وقال عبد الله بن المبارك : أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت ، فقال : ابنك يقضى وأنت تصلى ؟ فقال : إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يوما واحدا كان ذلك خللا فى عمله .

وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء هيئةً وأطيبه ريحًا ، فذكرت له ما رأيت ، فقال : تأمرنى يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابنى سوء ؟! والله يا أبا محمد لو كانت لى الدنيا كلها ثم أخذها منى (يعنى : الله) ثم سقانى شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمنا لتلك الشربة .

ومما يقدح فى الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها ، وكتمانها رأس الصبر .

---

(١) أخرجه أحمد [١/٢٣٧] بلفظ [إنه مهما كان من العين ...] قال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على المسند [٢١٢٧] : اسناده صحيح .

ولما نزل فى إحدى عينى عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنُه يوما من قِبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب .

الهلـع يضـاد الصـبر

ويضاد الصبر الهلع : وهو الجزع عند ورود المصيبة ، والمنع عند ورود النعمة ، قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا** ﴾ [المعارج : ١٩ - ٢١] ، وهذا تفسير الهَلوع .

قال جوهرى : الهلع أفحش الجزع .

وإذا أردت معرفة الهَلوع فهو الذى إذا أصابه الجوع مثلا أظهر الاستجاعة وأسرع بها ، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها ، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعا ، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية ، وإذا بدا له مأخذُ طمع طار إليه سريعا ، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح ، فلا احتمال ولا إفضال . وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها .. والله المستعان .

الباب العشرون :

دخول الصبر والشكر فى صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيها له بصيغة المبالغة ففى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، يدعون له ولدا وهو يعافيهم ويرزقهم !! »(1) .

وفى أسمائه الحسنى الصبور ، وهو من أمثلة المبالغة ، أبلغ من الصابر والصبار . وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة منها : أنه عن قدرة تامة . ومنها : أنه لا يخاف الفوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت . ومنها : أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجهٍ ما .

وظهور أثر الاسم فى العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم ، والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبة ، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره . فالحلم من صفات الرب تعالى أوسع من الصبر . ولهذا جاء اسمه الحليم فى القرآن فى غير موضع ، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله : ﴿ **وكان الله عليما حليما** ﴾ [الأحزاب : ٥١] وقوله : ﴿ **والله عليم حليم** ﴾ [النساء : ١٢] .

وفى أثر أن حملة العرش أربعة : أثنان يقولان : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . واثنان يقولان : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

فإن المخلوق يحلم عن جهل ويعفو عن عجز ، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه ويعفو مع تمام قدرته . وما أضيف شىء إلى شىء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى

---

(1) أخرجه البخارى [١٠/٥١١/فتح] ومسلم [٤/٢١٦٠/عبد الباقى] نحوه . من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

اقتدار ، ولهذا كان فى دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة ، وكونه حليما من لوازم ذاته سبحانه .

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسبتهم له سبحانه وأنواع معاصيهم وفجورهم ، فلا يزعجه ذلك لكه إلى تعجيل العقوبة ، بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ، ويرفق به ويحلم عنه ، حتى إذا لم يبق فيه موضع للصنيعة ، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ، ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه لا من باب الإحسان والنعم ،لا من باب البلاء والنِّقَم ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليه وبذل النصحية له ودعائه إليه من كل باب . وهذا كله من موجبات صفة حلمه وهى صفة ذاتية له لا تزول .

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التى توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها . ولو أن من أعرضوا عن اسمه « الصبور » أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق ، كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحى وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين ، وأن التفاوت الذى بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم . وكذا سائر صفاته .

ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ، فعِلْم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره ، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة ، وهو صبر عن أعظم مصبور عليه ، فإن مقابلةَ أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومَنْ إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ، ونسبته إلى كل ما لا يليق به ، والقدح فى كماله وأسمائه وصفاته ، والإلحاد فى آياته ، وتكذيب رسله عليهم السلام ، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى ، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم ، أمرٌ لا يصبر عليه إلا الصبور الذى لا أحد أصبر منه ، ولا نسبة لصبر الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه .

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى :
﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من

بعده ، إنه كان حليما غفورا ﴾ [فاطر : ٤١] ، وقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩١] ، وقوله : ﴿ وإن كان مكرهم لِتزولَ منه الجبالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] على قراءة من فتح اللام ، فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فبحلمه صَبَر عن معالجة أعدائه .

وفى الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتى به العباد ، فيمسكها بحلمه ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى ، فالذى يصدر عنه الإمساك هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة .

وكذلك خرورالجبال وتفطير[2] السموات ، الرب تعالى يحبسهما عن ذلك بصبره وحلمه . فإن ما يأتى به الكفار والمشركون والفجار فى مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضى ذلك . فجعل سبحانه فى مقابلة هذه الأسباب أسبابا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه ، تقابل تلك الأسباب التى هى سبب زوال العالم وخرابه ، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها .

وكان هذا من آثار مدافعه رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه ، فغلب أثرُ الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب .

ولهذا استعاذ النبى ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، ثم جمع الأمرين فى الذات إذ هما قائمان بها ، فقال : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك »[3] .

فتأمل ما تحت قوله : « أعوذ بك منك » من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره ، وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده ، وإفراده بالخوف والرجاء ، ودفع الضر وجلب الخير ، وهو الذى يمس بالضر بمشيئته ، وهو الذى يدفعه بمشيئته ،

---

(٢) تفطير السموات : تشققها .

(٣) أخرجه مسلم [٣٥٢/١/عبد الباقى] وأبو داود [٨٧٩] والنسائى [١٦٩] وابن ماجه [٣٨٤١] من حديث عائشة رضى الله عنها .

وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته ، وهو المعيذ من فعله بفعله ، وهو الذى – سبحانه – خلق ما يصبر عليه وما يرضى به ، فإذا أغضبه معاصى الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم ، أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له ، وحمدهم أياه ، وطاعتهم له ، فيعيذ رضاه من غضبه .

ولما كان اسم الحليم أدخل فى الأوصاف واسم الصبور فى الأفعال ، كان الحلم أصل الصبر فوقع الاستغناء بذكره فى القرآن عن اسم الصبور . والله أعلم .

الله سبحانه وتعالى هو الشكــور

وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو فى حديث أبى هريرة ، وفى القرآن تسميته شاكرًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ **وكان الله شاكرا عليما** ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وتسميته أيضا شكور ، قال اللهتعالى : ﴿ **والله شكور حليم** ﴾ [التغابن : ١٧] وقال تعالى : ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** ﴾ [الإنسان : ٢٢] فجمع لهم سبحانه بين الأمرين : أنْ شكر سعيهم ، وأثابهم عليه . والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ، ويغفر له إذاتاب إليه ، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه مغفرته لإساءته ، إنه غفور شكور .

وشكر الرب تعالى ليس كشكر الإنسان ، بل له شأن آخر كشأن صبره ، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور ، بل هو الشكور على الحقيقة . فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه ، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة ، ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفى ملئه الأعلى ، ويلقى له الشكر بين عباده ، ويشكره بفعله : فإذا ترك شيئا أعطاه أفضل منه ، وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة ، وهو الذى وفقه للترك والبذل ، وشكره على هذا وذاك .

ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح .

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها فى مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى ويوم البعث ، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه .

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته ، وجعل لهم أطيب الثناء فى سمواته وبين خلقه ، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار .

ومن شكره سبحانه : أنه يجازى عدوه بما يفعله من الخير والمعروف فى الدنيا ويخفف به عنه يوم القيامة ، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه .

ومن شكره : أنه غفر للمرأة البغى بسقيها كلباً كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى . وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين .

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه ، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه . وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذى أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه ، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التى لا نسبة لإحسان العبد إليها ، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر ، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه ؟!

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما** ﴾ [النساء : ١٤٧] ، كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم ، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلا ، فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء .

وفى هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيق ، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا .

فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله ، وذلك من لوازم هذه الصفة ، فهو منزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التى تنافى كماله وغناه وحمده .

ومن شكره سبحانه : أن العبد من عباده يقول له مقاما يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين ، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده .

وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه . فلا يهلك عليه – بين شكره ومغفرته – الإهالك ، فإنه سبحانه غفور شكور يغفر الكثير من الزلل ، ويشكر القليل من العمل .

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة ، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر ، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها . وهذا شأن أسمائه الحسنى ، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها ، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها ، ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسى القلب والبخيل والجبان المهين واللئيم .

وهو سبحانه جميل يحب الجمال ، عليم يحب العلماء ، رحيم يحب الراحمين ، محسن يحب المحسنين ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين ، جواد يحب أهل الجود ، ستار يحب أهل الستر ، قادر يلوم على العجز ، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، عفو يحب العفو ، وتر يحب الوتر . وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها ، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها .

خاتمة

في بيان عفو الله وكرمه وسعة مغفرته

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة ، قد رفع لك علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير ، واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير . فما أبقى مشهدُ النعمةِ والذنبِ للعارف من حسنة يقول : هذه منجيتي من عذاب السعير ، ما المعول إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهما فقير . أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور .

ما تساوى أعمالك — لو سلمت مما يبطلها — أدنى نعمة من نعمه عليك ، وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك ، فهل رعيتها — حق رعايتها — وهي في تصريفك وطوع يديك ؟! فتعلَّقْ بحبال الرجاء ، وادخل من باب التوبة [illegible] ﴿ إنه غفور شكور ﴾ [فاطر : ٣٠]

نَهَجَ[1] للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها ، وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها ، وحذره من وبال معصيته وأشهده — على نفسه وعلى غيره — شؤمها وعقابها ، وقال : إن أُطِعت فبفضلي وأنا أشكر ، وإن عُصيت فبقضائي وأنا أغفر ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ [فاطر : ٣٤] .

أزاح عن العبد العلل ، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل ويغفر له الكثير من الزلل ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

أعطاه ما يُشكَر عليه ، ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه ، ووعد على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه ، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

---

(١) النهج : البين الواضح .

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها ، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها ، وخرقت السبعَ الطباق دعواتُ التائبين والسائلين فسمعها ، ووسع الخلائقَ عفوُه ومغفرته ورزقه ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها** ﴾ [هود : ٦] ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

يجود على عبيده بالنوال قبل السؤال ، ويعطى سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال ، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا وجدها ، وأشكر للقليل من جميع خلقه ، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

تعرف إلى عباده بأسمائه وأوصافه ، وتحبب إليهم بحلمه وآلائه ، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه ، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

السعادة كلها فى طاعته ، والأرباح كلها فى معاملته ، والمحن والبلايا كلها فى معصيته ومخالفته ، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذى كتبه أن رحمته تغلب غضبه ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له ، حتى كأنه لم يكن قط من أهله ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان ، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزرا ، وسماء عطاياه لا تقلع عن الغيث بل هى مدرار ، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقةٌ سحَّاء الليل والنهار ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

لا يلقى وصاياه إلا الصابرون ، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون ، ولا يهلك عليه إلا الهالكون ، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور ، وإذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فأحذره فإنه لم يهملك لكنه صبور وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته ﴿ **إنه غفور شكور** ﴾ .

من علم أن الرب شكور تنوع فى معاملته ، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته ، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمته ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ .

ومن تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ، ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه ، ومن أحبه أحب أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه .

حياة القلوب فى معرفته ومحبته ، وكمال الجوارح فى التقرب إليه بطاعته والقيام بخدمته ، وكمال الألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته . فأهل شكره أهل زيادته ، وهل ذكره أهل مجالسته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ، إن تابوا فهو حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم ، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب ﴿ **إنه غفور شكور** ﴾ .

والحمد لله رب العالمين ، حمدًا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، حمدًا يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، عدد ما حمده الحامدون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . ورضى الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

تم بحمد الله

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

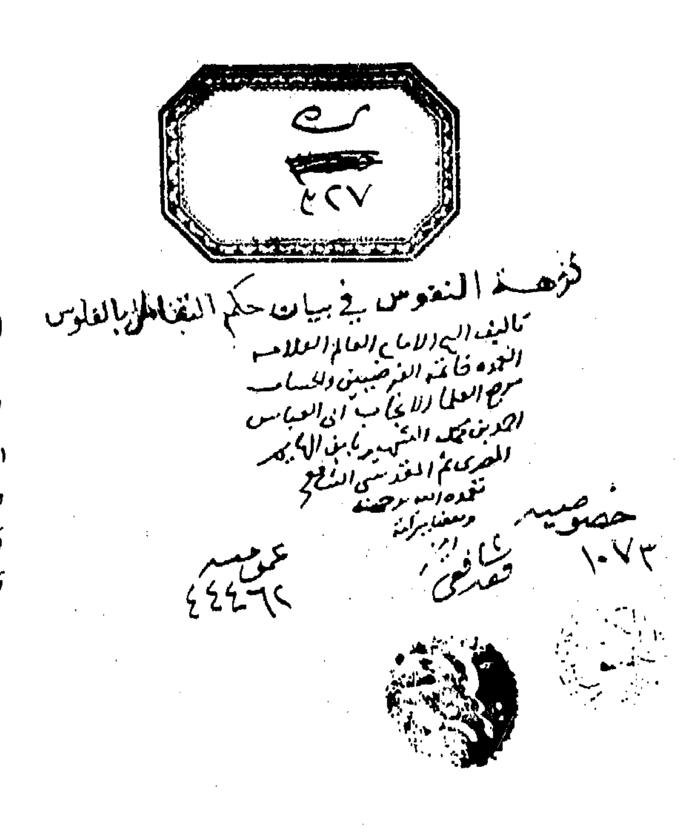
رقم الإيداع بدار الكتب ٨٩٣٠ / ٨٩

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



يفتى به إذا ترجح عنده لأنه من قواعد الشافعي ولا ينبغي أن يقال
قال الشافعي إلا لما وجد منصوصاً له وأن يكون قال به أصحابه
أو أكثرهم أما ما كان منصوصاً وقد خرج عنه الأصحاب إما ثابتاً لدليل
وإما بغيره فلا ينبغي أن يقال إنه مذهب الشافعي لأن تجنب
الأصحاب له يدل على ريبة في نسبته إليه وأما ما اتفق عليه الأصحاب
وقالوا إنه ليس منصوص فيسوغ تقليدهم فيه ولكن لا يطلق
أنه مذهب الشافعي بل مذهب الشافعية وما اتفقوا عليه
ولم يعلم هل هو منصوص له أم لا فيسوغ اتباعهم فيه ويسهل نسبته
إليه لأن الظاهر من أنهم إنما قصدوا أنه قال به انتهى وهذا القدر
الذي أوردناه كاف في حصول الغرض وبالله المستعان
وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين

علقتها بيد الفانية الفقير
إلى رحمة ربه علي الشعراوي
في سادس عشر شعبان
المبارك من شهور
سنة ثمانين
وألف
٢

